العدد السادس عشر - السنة السادسة
١٩٧٢



ديوچين

مصباح الفكر

الشعبة القومية المصرية لليونسكو

ومركز مطبوعات اليونسكو





ديوجين

مصباح الفكر

تصدر عن مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

١ شارع طلعت حرب ـ القاهرة

العدد السادس عشر

السنة الخامسة

١٩٧٢

مقالات هذا العـــدد

إنسان العصر يواجه مشكلات الزمن

من مشلات العصر والانسان :

- البحث عن الشخصية بعيدا عن التيارات الدخيلة ٠
- البحث عن مخرج من سباق الزمن ٠
- البحث عن النفس بين أعمال الفنانين ٠

يواجه الانسان فى هذا العصر أكثر من مشكلة ، ومع تقدم العلم وزيادة قدرة الانسان على السيطرة على بيئته ، تزداد المشكلات التى يواجهها حجما ونوعا ، حتى ليكاد العقل يتصور أن الانسان بتقدمه يبحث لنفسه عن المتاعب ، وأن حصيلة التطور الهائل الذى يحققه تسفر عن عديد من المشكلات ، بالقدر الذى تتحقق به المزايا !

هل يعنى هذا ، مثلا ، أن طبيعة الحياة هى هذه ، وأنها فى كل مراحلها تحافظ على مبدأ الشمول والتكامل ، فلا تعطى عطاء مجردا بغير مقابل ، ولكنها تعطى لتأخذ ، ليظل الأخذ والعطاء قادرين أبدا على اقامة نوع من الموازنة بين جوانب الحياة جميعا ؟ اذا أعطتنا الصحة استهلكتها فى المغامرات ٠

والتكيّف الثقافى وغموض الفن

واذا أعطتنا المال استنفدته فى المنازعات ٠

واذا أعطتنا العلم وضعت الى جواره زيادة سكانية هائلة تأتى على ثمراته ٠

وفى المجتمعات البدائية نجد أناسا يتميزون بالصحة ، لكنهم لا يقرأون ولا يكتبون ٠

وحيث يكون القنص هو وسيلة الرزق تشتد سطوة الحيوان ، ليحمى نفسه من الصياد ٠

وحينما تتجه المجتمعات الى الزراعة تتعثر مجارى الأنهار ، لتستفز حاجة الانسان وتدفعه الى الانشغال على موارده ٠

والصناعة تغرق الأسواق بالبضائع ، لكنها تعرض الانسان للبطالة ، وتعرض النظم الحاكمة لثورة العاطلين ٠

وفى هذا العصر نجد التقدم الهائل قد أثبت ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن قدرات الانسان قد تجاوزت كل التوقعات التى توقعها العلماء من قبل ، وأنه قد

حقق سيادة على مصـادر الثروة الطبيعية ، بل كذلك على عالم الفضاء ، فاقت كل تصور ٠

والشيء المحقق هو أن التطور بطبعه يسير الى الأمام ، وأن التقدم الكبير الذى حققه الانسان لا بد أن يشير الى مزيد من قدرات الانسان على تحقيق انجازات أخرى مذهلة ٠

لكن يبدو أن الانسان ، برغم هذا التقدم ، يواجه فى عالمه المعاصر عديدا من المشكلات ، بعضها قد جاء أثرا من آثار هـذا التقدم ، والبعض الآخر امتداد طبيعى لمشكلات تقليدية ، لم ينجح التقدم فى علاجها ٠

وأيا كان الأمر فهذه المشكلات قائمة فى مواجهة انسان هذا العصر ، وسيظل يحاول أن يتغلب عليها ٠ والله وحده يعلم ماذا يحدث للانسان لو تغلب على مشكلاته القائمة ؟ هل يكون هذا ايذانا بسيطرة الانسان على مشكلاته ، كما أصبح يسيطر على العالم من حوله ؟ أم أنه سيتغلب على مشكلة لتنشأ له مشكلة جديدة لم تكن فى الحسبان ؟

أغلب الظن أن ناموس الحياة سيظل ساريا برغم أى تقدم ، وأن الموازنة التى دأبت الحياة على فرضها ستستمر هى القاعدة ، وأن على الانسان أن يستبعد من ذهنه أنه قد يعيش فى عالم بلا مشكلات ٠

ولسنا نريد هنا أن نتعرض لـكل المشكلات التى يواجهها الانسان ٠ ولـكنا سنكتفى منها بالقدر الذى تعرضت له بعض مقالات هذا العدد من مجلة « ديوجين » ، وهى مشكلات صعبة ومعقدة ، وتحتاج الى جهد حقيقى يبذل لحلها ٠

وأول هذه المشكلات تتمثل فى محاولة الانسان أن يحتفظ بشخصيته ، وأن يحافظ على طابعه ، بين التيارات العديدة التى طرأت على حياته فى ظروف تاريخية أو حضارية مختلفة ٠

الانسان فى الدول التى خضعت للحكم الأجنبى فترة من تاريخها يشعر بأنه يعيش حياة فرضت عليه ٠ اللغة فرضت عليه ، والتقاليد فرضت عليه ، والعادات فرضت عليه ، والثقافة فرضت عليه ٠

حتى أساليب التعبير الفنى دخيـلة ٠ الوان الرسم غريبـة ٠ أنواع الموسيقى مستوردة ٠ صيغ التعبير أجنبية ٠

هذا الانسان يشعر بأن من حقه ، بل من واجبه ، أن ينتفض بالثورة على هذه العناصر الغريبة المفروضة عليه ٠

لكنه لا يجد عنها بديلا ٠

حتى لغته ، قد يجدها لغة شفهية غير مكتوبة ٠

حتى موسيقاه ، قد يجدها متواترة ، غير مخطوطة ٠

فاذا أراد أن يبحث عن شخصيته فقد يجدها مفقودة ، أو فى القليل مخبوءة عنه ، بفعل الزمن الطويل الذى تعرضت فيه بلاده لأحكام أجنبية ، أرادت أن تفرض عليه نوعا من الثقافة ، غريبا غير مقبول ٠

هذا الانسان ، بعد الاستقلال ، قد يجد نفسه مضطرا للنزول على حكم الأمر الواقع ، فيظل يتعامل باللغة التى خلفها الأجنبى وراءه ، وقد يندفع الى الغاء استعمال هذه اللغة ، أيا كانت النتائج التى تترتب على اتخاذ هذا القرار ٠

ومثلما يفعل مع اللغة قد يفعل مع كل ما خلفه المستعمر وراءه من آثار ، حتى فى التصنيع ، وادخال الوسائل الحديثة فى استنبات الأرض ، فضلا عن تصفية مظاهر الثقافة الوافدة من الخارج ٠

والانسان فى الحالتين معذور ٠

ان هو قبل الأمر الواقع ، وضحى شخصيته القومية ، فتلك ضرورة فرضتها أحكام الغزو الوافدة عليه ٠

وان هو حطم كل شىء ، وضحى مظاهر التقدم ووسائل الاتصال والتعبير جميعا ، فتلك ضرورة يقتضيها فى بعض الأحيان العناد القومى ، وهو ينشأ ردا على ما فعله المستعمر فى عهود سبقت ٠

وتظل المشكلة قائمة ، لا يفرق فيها انسان هذا العصر بين ما يجب عليه أن يستبقيه لصالح مجتمعه وبين ما يجب عليه أن يرفضه استعادة لشخصيته القومية٠

ولا شك أن هذا العجز عن التفريق بين الموقفين ، أو عن الملاءمة التى يقتضيها الأمر ، هو فى الحقيقة مسئولية الأحكام الأجنبية ، التى فرضت على المجتمعات التى دخلتها نوعا من التخلف غير المقبول ، لتواجه مثل هذا المصير ٠

لكن انسان هذا العصر فى المجتمعات الجديدة النامية سيجد حلا لمشكلاته ، فان منطق العصر لا يسمح بالعودة الى الوراء ، وردود الأفعال العاطفية السريعة لن تعدو أن تكون تعبيرا عن لحظة غضب أثناء بحث عن الشخصية ، وستنتهى هذه اللحظة بصورة أو بأخرى ، وستحل محلها مواجهة حقيقية لمسئولية التطور ٠ وستكون اللحظتان ، لحظة الغضب ولحظة مواجهة المسئولية ، من عوامل دفع هذه المجتمعات الى أمام ٠ الغضب يحميها من الوقوع تحت حكم أجنبى مرة أخرى ، ومواجهة المسئولية تدفعها الى اختيار الأسلوب الأنسب ، لتحقيق التقدم المنشود ٠

مشكلة أخرى يواجهها انسان هذا العصر ، وهى تزداد حدة ، كلما خطا المجتمع خطوات جديدة ، فى مجال الصناعة والانتاج ٠

تلك هى مشكلة الزمن ٠

انسان هذا العصر انسان متعجل دائما ، لا يجد فسحة من الوقت للتأمل ٠

المواصلات سريعة ، ومعقدة ، وعليه أن يكون فى سرعتها ٠

والآلة سريعة ، وقادرة على العمل ليل نهار ، لتنتج وتسد احتياجات الاستهلاك ، وتحقق فوق هذا فائضا يزيد على هذه الاحتياجات ٠ وعلى الانسان ان يلاحق الآلة فى سرعتها ، ليكون على الدوام فى مستوى هذا الايقاع ٠

ومطالب الحياة تزيد ، ومع زيادتها تلح على الانسان ضرورة ممارسة أعمال اضافية ، والمشاركة فى تحقيق انتاج أكثر ، للحصول على موارد للرزق أكبر ٠ وهذا معناه أن على الانسان أن ينظم نفسه تنظيما دقيقا ، ليستطيع أن يواجه كل هذه المشكلات ٠

والانسان فى هذه الدنيا ليس وحده ٠ فاذا انشغل الى هذا الحد فان علاقاته بالآخرين يجب أن تخضع لمقتضيات هذا الانشغال ، وهذه المسئوليات ٠ وتنتقل العدوى من واحد الى واحد ، لتصبح المشكلة فى النهاية مشكلة العصر كله ٠

ويصبح على الانسان ان يضحى بكثير مما ورثه من قيم ٠ يضحى بالمتعة العقلية التى يصرفها فى التأمل ، أو الانصات الى الموسيقى ، أو قراءة عمل أدبى كبير ، أو ترتيل بعض الأشعار التى ترطب قلبه ٠

يصبح عليه أن يمارس أنواعا غريبة من المتع ٠ موسيقى صاخبة وسريعة ، تختصر له الوقت ٠ كتب سريعة لا تتوقف عند التفصيلات ٠ معارض تقام فى الهواء الطلق ، ليراها وهو يعدو بسيارته ، فى طريقه لاجتماع عاجل ٠

حتى رياضة البدن لا بد أن تكون سريعة !

جلسته فى النادى مع أصدقائه لا بد أن تتم خاطفة !

تفاهمه مع أفراد عائلته وأقاربه يجب أن يتم بالشفرة !

وهكذا نجد انسان العصر يعتصر عمره دون أن يدرى !

هل معنى هذا أننا مع التطور قد نجد أنفسنا أمام انسان مشوه ، يجرى بسرعة الآلة ، يتبادل العواطف بالاشارات اللاسلكية ، ويرسل خطابات الغرام عن طريق العقل الألكترونى ؟!

وهذا لو تم ، ماذا يكون أثره على الانسان ؟

هل يظل الانسان ـ مع هذا ـ انسانا ؟

قد يكون من المناسب أن نقرر ابتداء أن هذه اللهفة المتسرعة ستنتهى مع التقدم ٠

ان لسباق الزمن نهاية ٠ لا بد أن تكون لهذا السباق نهاية ٠ وستأتى هذه

النهاية عندما يصبح المخزون السلعى فوق حاجة النـاس • عندئذ يعطى الانسان اجازات رغم أنفه ، ليوسع فرص العمل لسواه ، وليفرغ هو لتنمية قواه • وستكون هذه عودة لأسلوب جديد ، يجمع الى السرعة التمهل ، ويتسم بالدقة والتأمل •

وعندها يستعيد الانسان ما فقد..

ومشكلة ثالثة من مشكلات انسان هـذا العصر هى ما يستشعره من اغترابه فى هذا العالم ، لو وجد نفسه فجأة فى معرض من معارض الفنون •

هذا الانسان قد يشعر بأنه غريب بين هذه الأشياء المعروضة •

فان رفض هذا الشعور فقـد يشعر بأنه متخلف ، لا يفهم هذه الأشـياء التى تحيط به من يمين ويسار •

وسواء شعر بهذا أو بذاك فتلك قضية تحتاج الى مناقشة •

ان اتجاه الفنون الحديثة الى الالغاز شىء لم يعد مقبولا من أحد •

فليس الفن ملـكية خاصة ، أو تعبيرا عن مزاج خاص ، مسـتقلا عن المجتمع وعن الناس •

ليس الفن أكلة من الأكلات ، يترك شأنهـا لصاحبها وحده ، دون أن يتدخل أحد فى اقناعه بتغيير مذاقه للأشياء •

وليس الفن حلما من الأحلام ، يراه النائم فى منـامه ، لأى سبب ، ويترك له وحده حرية حكايته اذا صحا ، أو الابقاء عليه لنفسه اذا أراد •

ليس الفن هذا ولا ذاك ، ولـكنه تعبير عن شىء عميق أخاذ • تعبير صادر من ذات خصبة قادرة على أن تمتص حقائق الحياة ، وتعطرها بعطرها السحرى ، وتصبغها باللون الذى تراه ، ثم تعرضه للناس فى صورة أزهى وأجمل • والفنان يتخذ مادته مما هو موجود فى نفسى ونفسك ونفوس كل الناس ، لكننا لا نتبين هذا الموجود كما يتبينه الفنان ، وعندما يعرضه هو فى الاطار الفنى اللازم نتصايح جميعا به ، كاننا كنا قادرين على اخراجه بمثـل ما أخرجه الفنان • وهذه هى احدى صور العبقرية فى الفن •

المهم أن الفن ليس ظاهرة شخصية لا يتناولها أحد الا صاحبها ، ولكنه ظاهرة اجتماعية • لغة تخاطب بين الناس بأسلوب الفن •

ولكى تكون اللغة لغـة يجب أن تكون مفهومة ، فاذا لجا طرف من أطرافها الى الغموض والأبهام فكأنما يراد بالحديث أن يدار بين واحد يتكلم بالاشارة وآخر لايفهم هذه الاشارة •

عندئذ يفقد الخطاب معناه ، ويتعذر على الناس أن يتفاهموا ٠

هل هذا هو قصد الفن الحديث ؟ أو بعض الفن الحديث ؟

هل هذا هو ما يستهدفه الفنانون فى كل فرع من فروع التعبير ؟

وتحت ستار الجرأة والشجاعة والبسالة ، تنتهك كل المقاييس ، ليصبح تفاهم الفنان مع متذوقى فنه مستحيلا !

ان الشجاعة ليست فى الباطل ، ولا فى الوهم ٠

والجرأة على الفضيلة سماجة تمجها الأخلاق ٠

والفن الصحيح هو الذى يلتزم بمبدأ حوار واضح ومفهوم ليفهمه الناس ٠

وبعد ٠٠

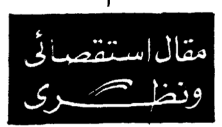
فان مشكلات انسان العصر لا تنتهى ٠

لكن الانسان مع هذا قادر على التغلب عليها ٠

وقد تنشأ بعد ذلك أمامه مشكلات أخرى ، لكنه سيحلها كذلك ، وهو ماض فى طريق النمو والتقدم ٠

عبد المنعم الصاوى

الأيديولوجيات المنبثقة ومفهوم الجدل



بقلم : ويللز . ه . تروبت
ترجمة : د . عثمان أمـين

المقــال فى كلمــات

يتنــاول الــكاتب فى مقــاله هــذا تفســيرا نظريا لظاهرة الأيديولوجيات المنبثقة أى المتطورة عن أيديولوجيات أخرى . وهو يركز على أيديولوجيتين على طرفى نقيض : التطور الأيديولوجى فى الراسمالية الأمريكية المتقــدمة ، وبعض جوانب التطور الروسى السوفيتى . وفى حديثه عن أمريكا يقول ان المشاكل التى واجهت أمريكا هى المشاكل المميزة لــكل تصنيع رأسمالى فى العالم كله : الاستغلال الطبقى، البطالة الدورية، الفقر، الندرة، الأيديولوجيات الاجتماعية والاشتراكية المتطورة ، الاتحادات العمــالية . على أن أمريكا لم تنهج نهج أوربا الغربيــة ، اذ أنشأت نظاما للعــلاقات الثقافية الاجتماعية لاحقا للراسمالية ولكنه غير اشتراكى . ومع أن وفرة الموارد المادية والتقــدم التكنولوجى الهــائل وما صحبه من كثرة الانتاج الصناعى بدا أنهما حلا مشاكل الانتاج والندرة فان

بناء هذا المجتمع القائم على الربح قد وسع فى الحقيقة من دائرة الحرمان •

وفى حديثه عن المرحلة الثانية من التطور الروسى يقول الكاتب أن الحكم السوفيتى فى أول أمره كان قائما على تنسيق سياسى ، وكانت السياسة السوفيتية قائمة على دعامتين : الانتاج والدفاع ، وكانت معادلة لينين الأولى هى : الشيوعية = القوة السوفيتية + استخدام الكهرباء • وبدأت المرحلة الثانية فى عهد ستالين ، اذ فسحت أساليب العمل القهرية الجامدة المجال لسياسات اقتصادية أكثر مرونة ، وتخفيض تدريجى لساعات العمل ، وزيادة فى انتاج السلع الاستهلاكية ، وتخصيص اعتمادات ضخمة لمجالات التعليم والصحة العامة • وتجلى مرة أخرى اهتمام رسمى بمشكلة النقلة من الكم الى الكيف •

ومن رأى الكاتب اعادة فحص الطابع التاريخى للمادية التاريخية والجدلية بما يتوافق مع التقدم التقنى والبيئى • ومن الواجب فى رأيه تنقيح المادية التاريخية والثقافية وفقا للافتراضات التى يوحى بها نمو الظروف البيئية والتقنية • وهو يرى أن النمو الاجتماعى يمكن أن لا يكون فى خط واحد ، بمعنى أنه قد يبدو تقدميا فى الكمية ، ولكنه من حيث الكيفية تأخرى أو مقلوب •

ان ما أود استقصاءه فى هذا المقال القصير هو امكانية ايجاد تفسير نظرى لجدل اجتماعى لظاهرة الانبثاق • ولن أعنى بنقد المنهج الجدلى أو الدفاع عنه فى النظرية الاجتماعية من حيث هو كذلك [1] ، بل سأعنى باعطاء تفسير له جدير بالاهتمام • وفى سبيل ذلك فاننى اخترت تطبيقين سوف أستعملهما لبيان المقصود هنا بالانبثاق، يتناول أولهما التطور الأيديولوجى فى الرأسمالية الأمريكية المتقدمة ، ويبحث ثانيهما بعض جوانب التطور الروسى السوفيتى • وكلا التطبيقين صورة اجمالية تحتاج الى المزيد من التفصيل • وعلى ذلك سأقدم آرائى هنا على نحو استقصائى فحسب •

— ١ —

وقبل التطرق الى مسائل أكثر اتصالا بجوهر الموضوع فانه من المعقول محاولة ايضاح المقصود هنا بتعبيرى الجدل وظاهرات الانبثاق • وفيما يتعلق بالجدل فاننى سأعنى أكثر من مجرد التأثير المتبادل ، وهو الاستعمال الابستيمولوجى العادى

(1) ومع ذلك فاننى اعتقد ان الجدليات حيلة كشفية قيمة ، فهى قادرة على ان تمدنا بتفسير ايحائى خصب للعديد من الظاهرات الاجتماعية ، على النحو الذى حاولت بيانه فى كتابى «Aesthetic Domains» الذى صدر عام ١٩٧١

للفظ على نحو ما جرى عليه استعماله في تقاليد المذهبين الطبيعي البراجماتي والماركسي ، على أن مفهوم العلية المتبادلة المرتبط به لا يكفي لأداء المعنى المقصود هنا، وان يكن من المؤكد أن هذه الاستعمالات تتفق مع الصياغة الحالية ·

فلنعبر عن الجدل اذن على هدى صياغة أعم يمكن بواسطتها فرضه على الحركات الاجتماعية والعقلية· وهكذا نستطيع بيان خصائصه على أنه النموالداخلي والاستنفاد اللاحق لأى نظام ثقافي سواءكان تقنيا اقتصاديا، أو علميا عقليا، أو فلسفيا، أوقانونيا أو دينيا ، أو فنيا · ومثل هذا الانهيار أو الاستنفاد قد يكون مؤقتا أو دائما ، متوقفا على ظهور (أو دخول) معارف جديدة أو تقنيات جديدة أو عنصر آخر لم يكن يعرف أنه موجود أثناء الفترة الأولى للأزمة · ولكن أتم نمو لأى نظام يسفر في النهاية عن أزمة تتطلب التصفية أو الثورة أو الاصلاح العنيف للمفاهيم التي تسوده وتحتويه في اطارها ، أو للتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية · وهذا الاتجاه يلقى أيضا مقاومة لا مفر منها من جانب القديم ·

والشواهد على ما هو موصوف هنا عديدة في كل من المجالات الثقافية السالفة الذكر · ولكنني سأسوق مثالا لهذه الظاهرة : الانتقال الثورى بين النظامين الاجتماعيين الزراعي والحضرى كما هو معروض في دراسات ف · جوردون تشايلد[1] وقد كان هذا الانتقال والاصلاح متفاوتي الخطر من الشمول ·

ويرى تشايلد أن السمة المميزة للنظام الزراعي أنه ينقل الانسان ، لأول مرة، مما وصفه « ديفيد هيوم » بوصف « مجتمعات العوز والحاجة » ، أعني الندرة المادية، ويهيء في الوقت نفسه الظروف لنظام « أخلاقي » وسيطرة الطبقة على المجتمع · وفي هذا التطور كان من الحتم أن يكون للثورة الحضرية انعكاسات ثورية حولت كل مرحلة منفردة للحياة الاجتماعية ، وكل تغيير عنها · فكيف وقع ذلك ؟

لقد كان نمو السكان أول العوامل وضوحا · وان الزيادة الكبيرة في المستوطنات السكانية الزراعية التي أتاحتها الزيادة المحسوسة في انتاج الغذاء قد عفت على الجهاز القائم ، جهاز الترابط الانساني والرقابة الاجتماعية · والواقع أنه لم يكن هناك جهاز لتبادل السلع وتوزيعها ، فقام نظام تقني واقتصادى جديد وشق طريقه الى الوجود ، وجرى البحث عن أدوات جديدة ووسائل جديدة للتبادل وتجهيزات تقنية جديدة ووسائل للنقل ، وتم اختراعها اشباعا للحاجات الجديدة · وكان من شان هذا الطراز «الاقتصادى» الجديد من المجتمع أن يتكاثر على نطاق واسع في صور تقنية ، جمالية ، تاسيسية وايديولوجية · ويذكر تشيلد الخصائص التالية المنبثقة

"The Urban Revo'ution' Town Planning. Review (21,1950). See also Robert Redfield's (1) illuminating discussion of this thesis in the Primitive World and its Transformations (Ithaca, 1953), chapter I.

للنظام الحضرى الجديد : الضرائب أصبحت ممكنة بفضل التجمع المركزى لرأس المال، والمبانى العامة ، والكتابة واختراع الأساليب الحسابية والمؤسسات الاقتصادية للتجارة الخارجية ، وظهور الطبقات الاجتماعية وليدة لتقسيم العمل المتزايد ، وظهور طبقة حاكمة، وعلو شأن الجمعيات والروابط عن طريق الجماعات السياسية والجماعات الطبقية الاقتصادية ، والعودة بشكل عجيب الى التمثيل الطبيعى فى الفنون (ويوصف تمثيل التجمع فى العصر الحجرى القديم بأنه طبيعى ، والتمثيل فى العصر الحجرى الزراعى المتأخر بأنه تجريدى رمزى) . وعلى هذا النحو نجد أن اتمام مذاهب الفكر ، وربما اتمام مذاهب التنظيم الاجتماعى ، على نحو ما رأينا فى الحالة التى ذكرناها منذ قليل ، أمر يقع فى مراحل النمو التاريخى . فالمقدمات الأساسية لشكل اجتماعى أو فلسفى أو علمى من أشكال العمل والتنظيم تدفع الى غاياتها المنطقية ، وبهذا تفقد المرونة الضرورية للمزيد من النمو والاعداد والشرح (١) . كذلك فان بنية المجتمعات كثيرا ما تفضى الى أزمات وتغييرات لا تقع فجأة ومع هذا تجىء تامة . هذه الظواهر ، على سبيل المثال فى العلم والفلسفة : الأرسطالية والتجريبية والميكانيكيات النيوتونية ، وفى الهيئات الاجتماعية تجمع الأغذية الزراعية والحضرية

---

(١) فى المجال العلمى تبذل طاقة اكبر فى دحض وتزييف النظريات وجهد اقل فى التحقق . وهذه الفكرة المستخلصة من مؤلف Sir Karl Popper, Thelogic of scientifc Discovery, (Londen, 1959) قدبسطهاتاريخيا Thomas Kuhn فى كتابه The Structure of Scientific Revolutions (Chicago, 1962) انظر على وجه الخصوص الفصول من ٦ الى ١٠ . وفى المجال العلمى بين كوهن ان التقدم لا يمكن يرتد الى الخلف (المؤلف المذكور الفصل الثالث عشر) بمقدار انعزاله كعمل من أعمال الجماعة ، أعنى انعزاله عن الضغوط الاجتماعية والسياسية . ومع ذلك فعلى نحو ما قد يكون ضد هذا التفسير صحيحا . وهذا على الأقل ، يبدو أنه مطلب كثير من الدراسات الماركسية التاريخية فى هذا الميدان (وبصفة خاصة ، على سبيل المثال ، فى دراسات جـ . د . برنال . ومن هذه الحركة ، ومن « ايديولوجية المعرفة » التى هى وثيقة الارتباط بالماركسية تولدت ابحاث جد هامة ، وان تكن محدودة ، فى التاريخ الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية للعلم . والواقع أن مفهوم كوهن عن « الانعزال » متمادل مع مذهب حياد القيمة فى العلوم . وهذا الضرب من « الحياد العلمى » هو الذى يترك العلم (كسلعة) تحت مشيئة أى مصلحة من المصالح الخاصة . ومن ثم فان هذا قد يكون هو السبب فى أن بعض الجماعات أو الهيئات الاجتماعية تكون أقدر على تحقيق التقدم العلمى من غيرها . ومن جهة النظر هذه يكون الحياد العلمى هدفا يطلب تحقيقه أولا عن طريق الرقابة على البيئة الاجتماعية للعلم. أى ان الحياد العلمى هدف وليس واقعة . وقد يكون القصور فى الوضوح عند كوهن راجعا الى ما أعتبره عدم الدقة فى تحليله للعلاقة بين « العلم » و « التكنولوجيا » .

والمدنية ، والنزعة التجارية ، والرأسمالية الكلاسيكية ، والامبريالية الآن ، قد قام بدراستها الكثير من الدارسين من وجهات نظر متعددة (١) ٠

ومن الناحية المنطقية فان هـذه النظرة الى الجـدل توحى بأن المزيد من النمو الداخلى أو الاعداد له بالنسبة لأى نسق ثقافى رئيسى أو فرعى ينظر اليه ، من جانب قسم له وزنه من أنصاره الثقافيين ، على أنه غير مثمر وغير مجز وغير منتج بل مدمر٠ فان النسق الثقافى الفرعى السائد قد استنفد كل فرصة فى المزيد من النمو ٠ وفى حالة الظواهر الاجتماعية، من حيث هى معارضة للظواهر الفكرية، فالوعى الاجتماعى المباشر قد يكون أو لا يكون عاملا فى انتزاع التغيير من ثنايا الأزمة ٠ وكل مايلزم هو أن بعض القوى تستفز متصـاعدة الى مستوى من الصراع ، بحيث أن الأهداف والظروف السائدة يبدو استمرار المضى فيها ، أو يكون فى واقع الأمر ، استحالة تنذر بكارثة ٠

وبتحليل الانساق الثقافية ، على الأصح الأنساق الثقافية الفرعية ، يتضح أن التطورات الجدلية ليست مقصورة على الأساس الاقتصادى للمجتمع (كما توحى بذلك الماركسية الكلاسيكية) ، وان تكن الأزمات غالبا تنشأ أولا ، ان لم تكن دائما ، على هذا المستوى (٢) ٠ ولكن من الضرورى الآن تقـديم افتراض مؤقت يبين السبب فى أن الأزمات فى نسق ثقافى واحد ، وليكن العـلم أو الفن ، لا تبدو دائمـا مصحوبة بانهيارات فى المجال الأساسى للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية (٣) ٠ ولصياغة هذا الافتراض سأستعمل مفهوم الانبثاق ٠

والانبثاق ، فى هذا السـياق ، يجب أن لا يخلط بينـه وبين مذهب التطور المنبثق أو مشاكل التفرد وامكانية التنبؤ التى يحاول هذا المذهب حلهـا ٠ ويدعى

---

(١) منذ هيجل لم يبذل سوى القليل من الجهد فى شـأن التحولات المماثلة فى الثقافة الجماعية وهناك ثلاثة اسـتثناءات مرموقة فى أعمال آرنولد هوسر و ب٠ سوروكين وأخيرا عنـد ف٠ كافوليس ٠

(٢) تمشـيا مع دعـوى المادية الثقافية قـد نستطيع أن نقول ان العوامل التقنية البيئية هى العناصر « العلية » الأولى المؤثرة بالنسبة لجميع الأنسـاق الثقافية الفرعية وفى توزيع الموارد الاجتماعية فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والسـلوك الاجتماعى ٠ وخطر وجهة النظر هذه ، التى عبر عنها Marvin Harris فى وضـوح تام فى كتابه The Rise of Anthropological Theory (1968) من الاتسـاق مع المفهـوم الماركسى للايديولوجية (البناء الفـوقانى) ، أمر غير واضح ولكنه يتطلب قطعا ، مزيدا من الاستقصاء ٠

(٣) قد كانت البرهنة على العلاقات السببية بين هذه المجالات الثقافية المهمة الأساسية للمادية التاريخيـة ، وقـد أصـاب Marx, Engels, Kautsky, Bread, Hilferding, Hauser, Lupas من بين آخرين نجاحا كبيرا ٠ وعلى الرغم من ذلك فجميع الظاهرات تعجز عن التوافق مع اطار المفهـوم المسـبق للمادية التاريخية بمعناها الضيق ، أعنى أن التفسـيرات تظل جزئية وغير متماسـكة بعض الشىء ٠

الانبثاق المفاجىء أنه فى حالة وقوع حادث تاريخى طبيعى أو اجتماعى ، يكون عجزنا عن رؤيته مقدما والتنبؤ بوقوعه نتيجة انبثـاق عنصر جديد أو فريد لم يكن موجودا فى الظروف الأولى المعروفة للباحث . وكثيرا ما ادعى أن هذا العنصر الفريد يشكل عالما جديدا من الوجود المتحرك من المادة الى العقل ومن العقل الى الألوهية . ولكن التطور المنبثق يزعم ، فى هذا المقام ، أن جميع الظروف الأولى كانت معينة . وعلى هذا الزعم يقع فى الخطأ . وتبعا لرأى « أ . زيلسيل » و« أ . تشاف » و«ج.هـ. راندال » يمـكن القول بأن العـلم الاجتمـاعى والتـاريخ ليسـا أوفى مرتبـة فى مجال الاسـتقراء من علم الأرصـاد (فرع من علم الطبيعـة) ، من حيث أنه لا يقع فى كل تنبؤ مفترض أن تكون جميع الظروف الأولى معروفة (١) . لأن معرفة مثـل هذه الظروف جميعها فيما يتعلق بحادث تاريخى أو اجتماعى معناه الاحاطة بتاريخها احاطة تامة . فاذا تكلمنا بلغة الاستقراء فانه يكون كافيا ومشروعا أن نتساءل هل التصور المنبثق للجدل قادر على أن يمدنا بتفسيرخصب للتجربة الاجتماعية والتاريخية . وفى حالة التاريخ وعلم الاجتماع فاننا لسنا فى حاجة الى قوانين وانما الى اتجاهات مشروعة فى الظواهر التى تعنينا .

فما هى اذن خصائص « الانبثاق » كما هو مستعمل فى النقاش الحالى ؟ أولا تاريخ الثقافات فى مجموعها يعرض ، بالتدريج ، نماذج أعلى وأكثر تعقدا من التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والبيئى . ولما كانت هذه العملية تتم فى اطار الحدود التى تفرضها على الوحدة محل البحث العوامل البيئية والانتاجية فانه يلاحظ أن الصراع الجدلى والمواجهة كثيرا ما تعوقها التغييرات التكنولوجية فى داخل النظام نفسه (٢) ومن ثم فان ما يبـدو ، فى مرحلة معينة من النمو الاجتمـاعى ، تنـازعا وصراعا على الضروريات المادية للحياة ، يمكن أن يتحول الى تنازع غير مباشر بين المصالح ، ولكن

---

(١) انظر على سبيل المثال المقال القيم لأدجارزيسيل « Physics and the Problems of Historico Sociological Laws, Philosophy of Science 18 (1941), also Adam Schaff, « Why History is constantly re-written», Diogènes,30 (1960), and J.H. Randall, Nature and Historical Experience (1958) especially chapter 3.

(٢) ومع ذلك فلست اريد الايحاء بأن كل التغييرات تتولد داخليا اى اننى لا اريد ان الضم ، فى غير لبس ، الى المبدأ الذى يسميه Sorokin « التولد الكامن للنتائج » . انظر ايضا كتابه Social and Cultural Dynamics (Boston, 1957) p. 639 f. وواضح ان تغييرات كثيرة قـد ادخلت من الخارج مثل التغييرات فى ثقافات جزر الباسيـفيكى فى فترة ما بعـد الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك فانى سألتزم بموقف أن التغيير هو فى المحل الأول نتيجة التجديد التكنولوجى وعلى هذا النحو أعطى الصدارة « العلية » للنظام التقنى .

فى مرحلة أعلى من التنظيم. ويصير هذا ممكنا بواسطة قوىدافعة تنظيمية وتكنولوجية انتاجية تصلح على نطاق واسع من الظروف المادية للحياة • وهـذه العملية يستطاع تبسيطها، تبسيطا شديدا بعرضها على أنهـا انتقال النزاع من مجال الـكم الى مجال الكيف • وفى التصنيفات الأنثروبولوجية يمكن القول بأن الروح المنبثـة فى بعض الصور الاجتماعية تبقى بعد انتهاء الضرورة الفعلية لهذه الصور ، وأن هذه الروح تعيش بعد المنفعة الناتجة من صورة المجتمع الذى أدى الى قيامها ، فتقيم النزاع بين المخلفات الأيديولوجية للهياكل السابقة المهجورة ، أى الظاهرة المشهورة باسم التلكؤ الثقافى » (١) • وما سأبحثه هنـا بايجاز هو الجدل الداخلى فى أمثـلة انتقل فيهـا النزاع تدريجا من الاهتمـام بالمـكونات المادية « والواقعية » للحيـاة الاجتماعية ، الى المسائل الخاصة بالقيم ، أى التى صارت فيها الروح المميزة مسيطرة على التقنيات والقوى الانتاجية (٢) • وسـأبين أن هذا هو بالضبط ما نشـهده فى ضروب النمو الامريكية والسوفيتية ابان النصف الثانى من القرن العشرين ، وان تكن كل منها ، كما هو المنتظر ، تتسم بسمات خاصة مختلفة •

– ٢ –

وليس من الضرورى أن نبحث هنا المحتويات الصحيحة لـكواكب القيم التى تتنافس على النفوذ فى المجتمعات الصـناعية ، الرأسمالية المتقـدمة والاشتراكية • وبالفعــل فان هـــربرت ماركـــوس Herbert Marcuse قد رســـم خصـــائص ومحتويات هذه النظم فى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة (٣) • والعنوان الفرعى لمؤلفـــه الذائع One Dimensional Man هو فى الواقـــع « دراســـات فى أيديولوجية المجتمع الصناعى المتقدم » ، مشيرا الى أن الصراع الأيديولوجى فى مثل هذه المجتمعات يجب تمييزه عن الصراعات التى حدثت (فى المرحلة المبكرة الكلاسيكية الرأسمالية) من التنظيم الاجتماعى • وما أود أن أرسمه هنا هو الطابع الجدلى والمنبثق للمواجهة الأيديولوجية المعـاصرة ، فى أمريكا أولا ، وفى الاتحاد السوفيتى ثانيا • وكما أشرت فيما تقدم فانى سأتناول ذلك على نحو تخطيطى فقط •

(١) شـخص John Dewey هذا الاتجاه فى وقت مبكر عام ١٩٢٩ فى كتابه Individualism, Old and New New York ,1958). وقد اخذت النتائج التى انتهى اليها على انها تجربة امريكية تسـند ميثولوجيا « الفردانية » والمشاريع الحرة فى مجتمع هو ، من الناحية التنظيمية ، نقيض لمثل هـذه القيم وضروب السـلوك •

(٢) وغنى عن القول بأن تاريخ التطور الجدلى الداخلى فى المجتمعات هو على الاغلب تاريخ صراع الطبقات . ولكن هذا ليس ضروريا • ان الجماعات البدائية غير المتعلمة ، عندما تكون منظمة على أسس علمية ، مع تقسيم للعمل محدود ، تمضى فى صراعها ضـد القوى الخارجية التى تهـدد تماسكها ووجودها . وانما المجتمعات التاريخية هى التى كان يغلب عليها أن تكون مجتمعات طبقية . انظر خصوصا دراســـات Robert, V. Gordon Childe Redfield

(٣) One Dimensional Man (Boston, 1964) Soviet Marxism (New York, 1958)

ان استنفاد النسق الثقافى المتاخم للعهد الزراعى واستنفاد قيمه التى سادت قارة أمريكا الشمالية حتى الخمس الأخير من القرن التاسع عشر قد جلب معة أمرين، صورا جديدة من التنظيم الاجتماعى ، وبعدا جديدا من الوعى الاجتماعى . ولكن ليست المشاكل الخاصة المتولدة عن هذا الانتقال هى موضع الاهتمام فى هذا النقاش. فهذه كانت فى الواقع مشاكل مميزة لكل تصنيع رأسمالى فى العالم كله وليست شيئا فريدا فى أمريكا : الاستغلال الطبقى ، البطالة الدورية ، الفقر ، الندرة ، الاتحادات العمالية ، الأيديولوجيات الاجتماعية الداروينية والاشتراكية ، الخ ، الا أن التنظيم الجديد للقوى المنتجة واعادة توزيع السكان فى أمريكا لم يكونا ليذيبا نفسيهما فى مسيرة الديموقراطيات البورجوازية فى أوربا الغربية . لأن القارة الأمريكية كان عليها أن تولد أول نظام للعلاقات الثقافية الاجتماعية تام التطور « لاحق للرأسمالى » (ولكن غير اشتراكى) . وما تزال الأسباب الدقيقة لذلك غير واضحة تماما ، وتنتظر دراسة واسعة وشاملة للتاريخ الاجتماعى الحديث للعلم التطبيقى فى الغرب .

ومع ذلك فان وفرة الموارد المادية المقترنة بتطبيق سريع للبتكرات التكنولوجية مع مشاكل الانتاج الصناعى والتوزيع وبيع السلع بدت كأنها تحل مشاكل الانتاج والندرة . وكلمة « بدت » هى الفهم الصحيح للموضوع . لأنه حتى مع ازدياد وفرة البضائع الى نسب خيالية فان بناء المجتمع القائم على الربح قد وسع من دائرة الحرمان ونقص الموارد . ولكن بمعنى هام « أن يبدو الشيء » هو « أن يكون » ، وهكذا فان الصراع الطبقى التقليدى فى سبيل الأساس المادى للحياة الذى كان يحدد التشكيلات الراسمالية المبكرة وصراعاتها الطبقية اللاحقة يظن الآن أنه قد انقضى . وعلى هذا النحو حلت مشكلة الانتاج من حيث المبدأ وفى الادراك الاجتماعى الجماهيرى لا فى حقيقة الأمر ، ذلك أن التجديد التكنولوجى قد جاوز التنظيم الذى أدى الى قيامه .

وانما كان رد الفعل عند ماركس مقصورا على مرحلة مبكرة من تطور الرأسمالية وخاصة أنه فى المخطوطات (١) المبكرة كان مشمئزا من انهيار القيم الثقافية الذى بدأ بظهور اقتصاديات السوق التجارية حتى فى الأزمنة الكلاسيكية . ويرى اقتصاد السوق الى تغيير جميع القيم من « قيم استعمال » الى « قيم مبادلة » . ولقد اكتشف ماركس منطق هذا التحول وهاجمه ورأى أن الرأسمالية الصناعية الباكرة قد ضاعفت ، بصورة ملحوظة ، التحرك من قيمة الاستبدال الى قيمة المبادلة . وحتى الرجال أصبحوا الآن كمجرد سلع . ولكن الرأسمالية المتقدمة قد نجحت

---

(١) انظر مثلا The Economic and Philosophic Manuscripts of 1844 (New York, 1964), وعلى الخصوص الفصول عن الأجور والعمل الذى لا يأنس اليه العامل .

اليوم فى احداث تغيير أكبر من طرف الى آخر ، لأنها أعادت تعريف البيئة (الطبيعة) والفن والتسلية وأوقات الفراغ والتعليم والاستجمام والصحة ، وبعبارة أخرى أعادت تعريف كل بعد من وجود الانسان بلغة الربح والمبادلة .

والمحصلة المباشرة لذلك هى ثقافة للمستهلك مع «وعى للمستهلك»(١) . أضف الى ذلك أن المجهود الانسانى قد نسق مع الجهاز الانتاجى تنظيما مطردا . وطبقت المعالجة الميكانيكية واليدوية ، على سواء ، على الأشياء والآلات والناس . وضروب ممارسة الاستكفاء الذاتى والاعتماد على النفس التى كانت الدعامة للروح التقليدية فى امريكا قد أصابها الوهن وصارت أيديولوجية المصالح الخاصة المسترشدة بالعقل . وظلت روح الاستكفاء الذاتى واستقلال الذات بتدبير أمورها ، لدى الفرد ، عيانية وأيديولوجية (٢) .

وقد محا عهد الرفاهية الخداعة الجديد الصراع السابق من أجل الديموقراطية الاجتماعية مع سيل جارف من « الانتاجية القهرية » وبناء مخاتل من « الحاجات الزيوت » . وكما أوضح ماركوز فى شىء من الجدل :

> هذه الانتاجية قهرية الى الدرجة التى تروج فيها اشباع الحاجات التى تتطلب مواصلة السباق الذى لا يسيغه العقل ، سباق اللحاق بالأقران ومع تخلف عن الزمن مخطط استمتاعا بالتحرر من استعمال المخ تمشيا مع وسائل التدمير بالعمل معها ومن أجلها . والعلاقة الوثيقة المتبادلة بين كيفية المعرفة وبين الانتاجية المربحة والسيطرة ، تعير غزو الندرة ، الأسلحة من أجل احتواء التحرير . والى حد كبير فان مجرد كمية البضائع والخدمات والعمل والترفيه ... تنتج هذا الاحتواء (٣) .

ومن ثم فان تجريد البنيات الثقافية الاجتماعية من الصفة الشخصية والانسانية يؤدى الى قيام الحرمان (٤) الوجدانى فى العلاقات الانسانية . وهذا

---

(١) قارن Erich Fromm, The Sane Society (New York, 1955), p. 384 f.

(٢) يمكن أن يقال ان اسمى تعبير ايديولوجى عن هذه الروح غير المجبدة ، بصرف النظر عن مظهرها السياسى المحافظ ، تجلى فى الحركة التعبيرية التجريدية الأمريكية فى التصوير ، اذا اصبحت لديه الفردية والحرية الشخصية فتنة و « تقليعة » بلغتنا حد السخف .

(٣) One Dimensional Man p. p. 241-242

(٤) انى استعمل هذا الاصطلاح هنا بطريقة عامة للتمييز بين المجالين الوجدانى والمادى فى الوجود وللتفرقة بين الأشكال المعاصرة للحرمان وبين العوز المادى وهو السمة المميزة للمجتمع الراسمالى الكلاسيكى . وهذا الاستعمال سيطابق ، اجمالا ، ما صار معروفا بالوحشية السيكولوجية والغربة الاجتماعية فى العلاقات بين الاشخاص . والمزيد من المناقشة لهذه الظاهرة انظر كتابى السابق الاشارة اليه وعلى الخصوص الفصل من : الأصول الاجتماعية للحرمان الوجدانى .

بدوره يستخدم أساسا للتعبير عن صور جديدة من النقد والمواجهة والانكار · ومن الاستقطاب الجديد تنبثق علاقة جدلية جديدة · فكيف يمكن توضيح عناصرها المتفاوتة ؟ ان بيانا تخطيطيا مؤقتا يمكن وضعه بالكيفية الآتية :

١ ـ الكفاية الاجتماعية والانتاجية	في مقابل	الاستغراق الانسانى (قيام الانسان بشؤونه)
٢ ـ توحيد معايير الفكر والسياسة والبيئة	في مقابل	تأسيس الفكر والسياسة (الثورية والخفية معا) والتحول النفسانى للبيئة (١)
٣ ـ استعمال الموارد البشرية الى أقصى حد بواسطة علم النفس الصناعى	في مقابل	هجر جميع المهمات المقننة فى العمل والتعليم معا
٤ ـ المستهلك (العادم) المبرمج	فى مقابل	اضفاء مسحة الجمال وعبادة الأصنام على العادم والنفاية (فى الفنون)
٥ ـ خلق حاجات زائفة لدى المستهلك	فى مقابل	العودة الى الضرورات الأساسية فى «الطعام الخالص» والحركات الاقليمية البدائية (الزراعية غالبا)
٦ ـ الانشغال النزوانى بالجنس والعرى فى صورة « الاسفاف القهرى » (٢)	فى مقابل	الشهوانية البدنية ، العرى والفعل الجنسى علانية
٧ ـ الترويج للعنف فى وسائل الترفيه الشعبية	فى مقابل	الرفض التام للعنف من أجل ايديولوجية « للحب »
٨ ـ عبادة الذكورة	فى مقابل	امكانية عكس أدوار الذكور والاناث ومزاولة النساء لحقوقهن الجديدة
٩ ـ تلطيف حدة المناقشة فىوسائل الاعلام الشعبية عن طريق العرض المحايد	فى مقابل	زيادة حدة المناقشة بتجريد معجم الألفاظ والحوار من طابع الحيدة (٣)
١٠ـ القهر والعنف المرضيان والمقننان فى تنفيذ القانون بطريقة الأجهزة الحاسية والعنف غير المتنبه اليهفىالحياة اليومية	فى مقابل	مراسم العبادة والعلومالسرية وجعل القتل والعنف والتدمير طقوسا وشعائر

(١) لقد كتبت عن جعل السياسة جمالية وطقوسية فى مقالى عن بدائل للقهر الجمالى المقدم الى الاجماع السنوى الثامن والعشرين للجمعية الأمريكية لعلم الجمال .

(٢) لتحليل « الاسفاف القهرى » انظر Marcuse, one Dimensional Man.

(٣) مما يثير الاهتمام أن هذه الحدة تحتاج الى التغلب على اتخاذ معجم الفاظ لورى سابق =

ونحن نرى هنا أن الجدل قد « رفع » الى مستوى أعلى ، ومع هذا النحو ينبثق لا على أنه صراع مباشر من أجل وسائل الانتاج الاقتصادية ٠ والواقع أن الأساس الاقتصادى للمواجهة قد غشيته الظلال الى حد كبير فى المرحلة المتقدمة من النظام الرأسمالى ٠ ويثير هذا الموقف نقدا ، عرضيا ، شعبيا وعلميا ، للتحليل الماركسى الاجتماعى التقليدى (من اليمين واليسار الليبرالى كليهما) ، وكان من أثره الحط من شأن الفلسفة الاجتماعية الماركسية الى وقت حديث جدا٠ ولكن اذا كان الأساس الاقتصادى قد خفى كله أو بعضه عن التحليل السطحى فان هذا لا يكفى للحط من أهميته الجوهرية ٠

- ٣ -

وأود الآن أن أصور بعض الميول السوفيتية التى يمكن أن تصبح فى متناول البحث بواسطة مقولة الانبثاق الجدلى ٠

من الواضح كل الوضوح أن بعض فترات سيطرة الحكم السوفيتى والسيطرة الحزبية قد اعتمدت على تنسيق سياسى للشعب الروسى ٠ ومثل هذه السياسات قد بررت زمنا طويلا بتنبيه الأنظار الى العزل الدولى للاتحاد السوفيتى وتطويقه فى مجتمع رأسمالى معاد له وبدعوى أن التصنيع الجيد هو وحده الذى يمكن أن يستخدم أساسا لدولة اشتراكية تستطيع الحياة ٠ (كانت معادلة لينين الأولى هى : الشيوعية = القوة السوفيتية + استخدام الكهرباء) ٠ ومن ثم فان الطاقات المبكرة للديكتاتورية السوفيتية كانت معنية بالمسائل ذات الشقين من الانتاج والدفاع (١)٠

على ألنا فى الفترة التالية لحكم ستالين أن الاهتمام باستثمار رأس المال فى الصناعة الثقيلة وأساليب العمل القهرية الجامدة ، قد فسحت المجال لسياسات اقتصادية أكثر مرونة وتخفيض تدريجى فى ساعات العمل ، وزيادة فى انتاج السلع الاستهلاكية ، وتخصيص موارد ضخمة فى مجالات التعليم والصحة العامة٠ وظهر مرة أخرى اهتمام رسمى بمشكلة النقلة من الكم الى الكيف ، وهى المشكلة التى عالجها لينين فى كتاب الدولة والثورة ، ولا يقصد بذلك الايحاء بأن سياسة التحرر اللاحقة لحكم ستالين قد انعكست على السياسة الخارجية السوفيتية ولا على السياسة الثقافية، وهو الأمر الذى يعنينا فى بحثنا هذا ٠ كما أنه لا يمكن القول ان الاتحاد السوفيتى قد حل مشكلة الانتاج مع الاستهلاك بالدرجة التى تغلب فيها على هذه المشكلة فى الغرب وبخاصة فى أمريكا ٠

ـ بالاستعاضة عن ذلك المعجم أو توسيعه باضافة الفاظ لا تحتمل أن تغتصب فى وسائل الاعلام الجماهيرية ، وهكذا نجد مثلا أن كلمات «fuck» و «pig» و ,«mother» وغيرها من « القباحات » تحل محل اللغة الدارجة المبتذلة ، لغة المواجهات السابقة مع السلطة القائمة ٠ وهكذا تنبثق « حرية الكلام » « والقباحة » والمعجم السياسى الثورى الجاد ٠ وقد كان عنوان مقال حديث عن الثورة فى كتاب «Leviathan» هو « من الذى سيقوم باذلال الام » ٠

(١) هذا التطور بحثه L. Gruliow فى Current Soviet Policie (New York, 1953)

الا أنه يتضح من التطورات الأخيرة أنه قد حدثت نقلة من القهر المادى الى القهر الأيديولوجى • وهذا أمر واضح على الخصوص فى الفنون والفلسفة التقليدية، وليس بمثل هذا الوضوح فى المجال العلمى التكنولوجى (ولاحتى فى فلسفة العلم)، وهو أمر قد أحكم تنسيقه مع النجاح السوفيتى فى المجالين المادى والاقتصادى من الحياة الاجتماعية (١) وهكذا ، وبمسلك مختلف كل الاختلاف انبثق ما يمكن أن يسمى « مرحلة ثانية » (مرحلة كيفية) من الشيوعية ، يمكن مقارنتها بالمرحلة التالية للتنظيم الرأسمالى للمجتمع فى الديموقراطيات البورجوازية »(٢) • وكانت ثمرة هذا التطور ، كما ذكرنا آنفا ، من ناحية ، الغاء العمل غير الضرورى والقهرى وتوجيه موارد اجتماعية ضخمة الى التعليم الفنى والانتاج الاستهلاكى والخدمات العامة ، ومن ناحية أخرى ، وفى موازاة الاستعمال القهرى للانتاجية فى أمريكا ، كوسيلة للاحتواء الأيديولوجى ، فان السياسة الروسية تفرض التجانس الأيديولوجى فى التعبير الفنى والدراسات الانسانية ، بالقمع المنظم لحركة « الخوارج الماركسية » •

والحكومتان السوفيتية والأمريكية اذ تشتركان فى العديد من الخصائص المميزة للمجتمعات الصناعية الحديثة تشتركان أيضا فى القدرة على ازاحة النقد ذى الخطر واخضاعه • فالصراع من أجل الضرورات المادية للحياة ، يصفى بمزيد من انتاج السلع وتوزيعها ، مقترن بحملات مذهبية دعائية ضخمة • وما ان تتم ازاحة النشاط والفكر الراديكاليين حتى ينتهيا الى عدم التطابق الأخلاقى والجمالى • ولكن المجتمع الآلى الخاضع للحساب الألكترونى مجتمع محيط يطوى كل شىء ، وهو بواسطة الرقابة على الأعلام والحاجات يبث المذهب كوسيلة لفرض الاستقرار والحفاظ عليه•

> ••• وهذا الاشتراط المسبق هو (أ) بمعنى ضيق عقلى أى أنه يبدو وكأنه التجلى للضرورة والكفاية التكنولوجيتين• و (ب) هو مقترن برغد متزايد ومستوى مرتفع من المعيشة لقسم متزايد من السكان • والى الدرجة التى يثمر فيها التقدم التقنى تلك المزايا المحسوسة يستطيع المجتمع أن يعول على قوة الجهاز الاقتصادى ، وأن يحتفظ فى الخلفية بوسائل أعنف لفرض الطاعة بصورة طبيعية • والى هذا الحد يشترك

(١) وهكذا فان غياب سياسة قهرية « رسمية » ضد المؤسسة العلمية السوفيتية فى السنوات الأخيرة قد صدره النقد الداخلى الحديث لمذهب الليزليكيالية Lysenkianism فى علم الوراثة فى كتاب The Rise and Fall of T. Llysenko, Z. A. Medveder (New York, 1969). هذه الوثيقة التى تدوولت على نطاق واسع فى صورة مخطوطة من المؤسسة العلمية قد أقرها اعضاء الأكاديمية السوفيتية للعلوم جميعهم تقريبا واوصى بنشرها بالأجماع قبل نشرها أخيرا فى الولايات المتحدة . ومع ذلك فهى لم تعر بعد فى متناول الشعب خارج الجماعة العلمية فى الاتحاد السوفيتى . وبسبب تأثيرها المبلبل للخواطر ، فأن ا. ميدفيديف قد اتهم بالجنون ووضع فى أحد مستشفيات الأمراض العقلية مرة على الأقل .

(٢) هذا التحليل للتطورات السوفيتية الحديثة يعتمد الى حد كبير على مقدمة ماركوز الواضحة لطبعة ١٩٦١ من مؤلفه عن الماركسية السوفيتية Soviet marxism ص ٥ـ ١٦ .

النظامان في عقلانية التقدم التقني ، اذ نرى الاتحاد السوفيتي «ملاحقا» الغرب تدريجا في القـدرة على احلال القوة الاقتصـادية والأيديولوجية محل القوة العسكرية والبوليسية (١) .

وبتوافر مستوى معين من الـكفاءة التكنولوجية فان المشروع الثورى يصبح اليوم مشروعا يكفل للمجتمع تغيرا كيفيـا أكثر مما يكفل له تغيرا كميـا ، ويعترف اليسار تدريجا بأن مزيدا من الحرية ونوعية أعلى من الحياة ليسا ثمرة أوتوماتيكية للتقدم التكنولوجي ولو جعلت الملـكية عامة ، أعنى أن فاشية الجنـاح اليسارى هى امكانية بمثل الدرجة كالتحرر . والواقع أن آلات « التقدم » تخدم الرجعية وتقوى استقرار الوضع الراهن فى كل من المجتمعات الاشتراكية السوفيتية والطبقية. وكما افترضت فان المواجهة قد دفعت من النـاحية الجدلية دفعـا الى حد المطالبة باضفاء الطابع الانسانى على جهاز الرقابة القائم .

ومن هنا رأينا في الاتحاد السوفيتي أن وسائل التحرر التكنولوجية تستخدم لاســتدامة أيديولوجيــة جديدة ، محرفة بذلك جوهر النظرية الماركسـية ، أعنى التعريض والتدمير الانتقادى لكل أيديولوجية. ولم يعد الصراع فىالاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية يبحث عن الرقابة العامة على وسائل الانتاج ، ولـكنه يطالب الآن بحرية التعبير وبماركسية انسانية (الانسانية الماركسية) . أما فى الغرب فان البديل الأساسى للقمع غير واضح بسبب فشل قاطع فى تبين الشروط الاقتصادية المسبقة للتحرر ، وبسبب ستين عاما من الظلام الأيديولوجى فيمـا يتعلق بطبيعة المساواة الاجتماعية ومعنى النقد الاجتماعى الماركسى . وسأقول المزيد عن ذلك فى الخاتمة .

ثلاث نتائج يمكن أن نحـاول استخلاصها من مادة هذا المقـال ، وهى تتعلق بالمسائل التى تخص :

١ ــ التقدم الجدلى للصور الاجتماعية .

٢ ــ العلاقة بين القومية والاشتراكية .

٣ ــ المغزى التاريخى للمادية التاريخية والجدلية .

وسأحاول مؤقتا الكشف عن متضمنات الصورة الحالية فيمـا يتعلق بكل هذه المسائل .

أولا ، فيما يتعلق بتقدم الصور الاجتماعية هناك ميل ، فى تحليلنا للتطورات الأمريكية السوفيتية ، الى افتراض أن الانتقال من الواقعية الأيديولوجية (الاهتمام بالظروف المادية للحياة الاجتماعية) الى الاهتمام بالقيمة الأيديولوجية أمر لا يمكن أن يرتد الى الوراء . ولكن هذا التفسير ليس حاسما ولا ضروريا على نحو ما سأبينه

(١) Herbert Marcuse, Soviet Marxism P. X.I.I.

فى الصفحات التالية عن التطور الأيديولوجى للأمم المتخلفة فى عشرات السنوات الحديثة ٠ وما هو حاسم متضمن فى الصيغة الجدلية للنمو الثقافى الرئيسى والفرعى أى التحديدات المعنية داخليا لأى دعوى ثقافية أو أى نسق من العلاقات الاجتماعية التى عندما تصل الى مداها وتستنفد تؤدى الى تغيير جذرى فى الفكر والحياة الاجتماعية ٠ وظاهرة الاستنفاد هذه يمكن تأويلها بأنها أساس كل ثورة ٠ ومما يهم ملاحظته أن امكان الارتداد من الكم الى الكيف يلقى بعض الضوء على الانشقاق الأيديولوجى فى قلب الثورة السوداء الأمريكية المعاصرة ٠ على حين أن التعميم الاجتماعى الذى يميز تحسين ظروف جماعة مضطهدة يؤدى الى نشاط ثورى ضخم (مثال ذلك بين الفقراء السود) ، فان البورجوازية السوداء وطبقة المثقفين هى التى أصلت الحركة نحو الواقعية (المركزية الاتنولوجية والنزعة الاقليمية)٠ الا أن الجمهرة السوداء غير المتميزة المشغولة بالمحافظة على وجودها الاقتصادى تميل الى أن تعتنق ، عن طريق قياداتها ، أيديولوجية أكثر اتساقا مع النزعة الانسانية المسيحية وتقاليد المساواة ، مع أهداف تشبه أساسا أهداف حركة العمل فى أمريكا٠ ومن ثم فان برامج الدراسات الأفريقية فى الجامعات الأمريكية تخدم وظيفة المذهبية الواقعية ، وبالمثل تثبت دعائم القيادة الراديكالية للحركة الثورية (١) ٠

وهذا التفسير للتحول الاجتماعى متضمن التنفيذ للعناصر « الطوبائية » فى المادية التاريخية (الماركسية) أعنى تلك الافتراضات التى توهم بأن الروح المميزة لمجتمع أرقى كيفا وخال من المؤسسات القهرية هو النتيجة الحتمية لاشتراكية وسائل الانتاج (الحل للمسألة الاقتصادية) ٠ وكما بينا فان الثورات الناجحة (وبخاصة فى روسيا وأوربا الشرقية) كثيرا ما قلبت الأهداف الثورية التى تعتنقها ، وذلك بالاقتباس ، دون تعديل ، لجهاز القهر من الرأسمالية الصناعية والاستقرار فى صور من الفاشية اليسارية أو صور من الرأسمالية التى تجعل الاحتكار فى يد الدولة ٠

ثانيا ، أن العلاقة بين الحركتين القومية والاشتراكية قد لا ترى واضحة من الناحية الوظيفية حتى ولو كانتا متعارضتين من الناحية الأيديولوجية، وكلتا الحركتين ثورية فى صميمها ، على معنى كونهما محاولتين لابراز واقامة الجماعة السابقة على العصر الصناعى (أو السابقة على العصر الامبريالى) (٢)٠ والظاهرة القومية ، حتى

---

(١) هذه العملية ليست مفهومة تمام الفهم فى كثير من قطاعات اليسار الراديكالى ٠

(٢) اننى مدين لصديقى وزميلى الاستاذ Erazim Kohak بتوجيه نظرى ابتداء الى هذه المماثلة . ونحن نختلف ، مع ذلك ، على الأقل فى نقطة هامة . فبينما يعزو Kohak تفتت الجماعة وزوال الطابع الفردى من الحياة الاجتماعية الى تغير فى المجال الايديولوجى ، أى الى ميول التناقض المادى والميول الوضعية فى الفكر الغربى ، فانى اميل الى القول بان نفس هذه التغييرات هى نتاج لتغييرات أساسية أكبر فى عمليات الانتاج والتوزيع والمبادلة ادى اليها انبثاق اقتصاد السوق وقوى من ساعدها مجىء الثورة الصناعية الراسمالية ٠ وهذه بالطبع ، هى النقطة الجوهرية فى المادية التاريخية .

فى أقدم تعبيراتها عند مكيافيلى وفيكو وجوبينو ، مثلا ، تدعو الى العودة الى هذه المبادىء الأولى التى تكون الجماعة السلالة ، التربة ، والاسطورة بوصفها من أعمال التنقية • وكل القوميات هى ، بطبيعتها ، مركزية اتنولوجية وذات وعى اقليمى • والمبادىء الاقليميــة الأتنولوجية هى على التحديد تلك التى تتحدد بها الشخصية القومية ويستعاد بها تكوين الجماعة بواسطة الحركات القومية أو الاشتراكية القومية.

وفى الشيوعية توجد أيضا محاولة صريحة لاعادة جمع شمل الجماعة المفتتة ، ولكن لا على أساس مركزية اتنولوجية ، وانما على أساس دولى • والاختلافات الكبيرة لهاتين الحركتين (القومية والاشتراكية) تسهل رؤيتها فى أهدافها المختلفة لتحقيق هويتها • فعلى حين أنه فى الصورة الأكثر نموذجية من القومية تكون وقائع وأهداف الحب والافتتان والوحدة هى من قبيل الدم والتربة ، فان الهوية فى الشيوعية يمكن تحقيقها عن طريق أسلوب العمل الشخصى (غير الاتنولوجى) وربما عن طريق الممارسة الخارجية للملكية الجماعية والمشاركة الجماعية وأجهزة انتاج البضائع ، أعنى أن أهداف تحقيق الهوية هى مجردة الى حد كبير • والشيوعية الدولية قد غص حلقها ، فى سعيها الى الوحدة المتآلفة بهذا الميل الدولى الذى يمتص ، عند نجاحه ، على نحو من المفارقة ، الجهاز الانتاجى الدولى للرأسمالية الصناعية • ومن ثم فان النزعة « الانسانية » الحسية والجماعية فى كتابات ماركس الأولى فشلت فى أن تحقق ودام الاغتراب لانعدام أية امكانية لتوحيد الهوية الفردية والمباشرة مع بنيات المجتمع غير الانسانية ، المجردة والتى اتخذت صورة عيانية •

وتأسيسا على هذه النظرة فليس عجيبا اذن أن الحركات الثورية الجديدة التى تضم عناصر من كلتا الأيديولوجيتين القومية والاشتراكية قد أثبتت أنها أكثر دواما• كما أنه ليس من الغريب أن يجد الانسان اندفاعا شديدا نحو النزعة الاقليمية فى الثورات الداخلية للبلاد الرأسمالية المتقدمة • ولست أريد ، مع ذلك ، أن أنكر أن انبثاق الروح المتجهة الى القومية ، مستقل عن التطور الاقتصادى للرأسمالية • والواقع أننى سأفترض أن التجربة الرأسمالية الصناعية للجماعة قادرة على توليد أيديولوجيات وبرامج تسعى الى اعادة بناء الجماعة (١) •

---

(١) ان دور الطقوس والفن حاسم الأهمية فى اعادة بناء الجماعة • والحاجة ماسة الى دراسات فى هذا المجال ومن أعلى الدراسات الابحائية الحديثة لهذه الظاهرة دراسة Paul Honigscheim التماثل فى الموسيقى والدراما فى الجماعات البدائية وذات التحكم المطلق «Die Ahnlichseit von Musik und Drama in primitiven and totalitaren Geselschaften», فى مجلة «Zeitskrift für Sozologie - Kölner Pschologie (3, 1964) ودراسة الدراما «Spectacle and Scenarios : Lee Baxandall, «The Drama, Review (4. 1969)

ان متضمنات القوة الجماعية غير العادية للفن والطقوس بالمعنى المتضمن هنا وبالنسبة للنظرية العامة للثقافة قد عولجت فى كتابى المشار اليه فى بحث قيم جدا بقلم H. D. Duncan, Communication and the Social Order (New York, 1962) وبصفة خاصة القسم الثامن الفصول الأخرى

وأخيرا فانه من الضرورى اعادة فحص الطابع التاريخى للمادية التاريخية والجدلية • وعن هذا الموضوع قد سبق أن كتب الكثير • لأنه من السهل أن نرى أن مستوى معينا من النمو البيئى التقنى هو وحده القادر على تقديم البينة التى توحى بافتراض التفسير المادى للتاريخ • فالمادية التاريخية والثقافية يجب اذن تنقيحها وفقا للافتراضات التى يوحى بها النمو المتقدم للظروف البيئية التقنية • والتنميات المتقدمة هذه ترى أن النمو الاجتماعى يمكن أن لايكون فى خط واحد ، أعنى أن النمو قد يظهر على أنه تقدمى فى الكمية ، ولكنه من حيث الكيفية تأخرى أو مقلوب • ذلك لأن الأيديولوجيات المعاصرة كثيرا ما تكون حياتها أطول من الظروف الموضوعية التى تولدت منها • ومن ثم فان الصراعات فى القيم التى لا يذيبها الاتجاه الأول الى الثورة والتغيير فى الظروف الموضوعية ، تنبثق فيما بعد ، اما كمناطق سهلة المنال يمكن أن يحركها بنيان قوة جديد، واما فى صورة مواجهات قيمة عيانية منشقة من أساسها الموضوعى • وفى الحالة الثانية يأخذ العناد والاحتجاج مظاهر غريبة من الفيتيشة والسرية والانسحاب ومن صور أخرى للسلوك عجيبة ، هى معارضة تماما للسيطرة السائدة والعمل الثورى الموضوعى • وبأزاء ذلك فان الصراع الثورى الفعلى قد حل مكانه مواجهة شعائرية ودرامية • وانطمست الظروف الموضوعية (التاريخية لتلك الصورة الجديدة من التمرد) (١) • وباخفاء الأساس الموضوعى للثورة ، وبمعادلة التمرد بالانحراف الخالص ، فان القيم الانتقادية والثورية للطبقة العاملة قد ضلت بهذا طريقها بفعل التوجيه والتمذهب ، بحيث صارت هى هى مصدر القوة والأساس للنظام الاجتماعى الذى استبعدهم ماديا وعقليا • وهذا المصدر الجديد للقوة يمكن اذن اثارته ضد جميع صور الانحراف باسم الوطنية أو فى أسلوب من المفارقة ، « فى الدفاع عن الثورة » (٢) •

---

(١) جرت على الاقل ، محاولة واحدة ذات مغزى لاعادة الظروف الموضوعية للحركات الثورية الطلابية والسوداء فى صيغ من التحليل الماركسى • الا انه تجب ملاحظة أن هذه الصياغة لم تلق قبولا كبيرا ، حتى من اليسار الراديكالى • والصياغة المقتبسة هنا هى عن E. Mandel فى New Left Review (54, 1969) ويقول Mandel : (١) ان الاختفاء السريع لاستخدام « العمل غير الماهر » فى الصناعة منذ عام ١٩٦٠ هو العلة الموضوعية لراديكالية السود و (٢) ان تحول التعليم العالى الى تدريب تقنى مبرمج نتج عنه بروليتارية خريجى الكليات (بأن جعل منهم مجرد عمال مثقفين مأجورين) هو الأساس الاقتصادى لراديكالية الطلبة •

(٢) هذه الظاهرة ليست ، بالطبع ، مماثلة للاستخدام المأجور لأجورى البروليتاريا العوام فى مجتمع القرن التاسع عشر الرأسمالى •

ويفترض اذن أن النظرية الماركسية التقليدية لا تستطيع تقدير تعقد هذا التحول الأيديولوجي المتقدم • لأن الانتقال الجدلي من نظام ثقافي مستنفد الى صورة أحدث وأكثر حيوية لا يولد ، بالضرورة ، من حيث الكيف ، صورا أرفع من الحياة الاجتماعية • والانحلال يسهل ارتباطه بالظروف الخارجية مثل الحرب أو التطويق• وعندما يبدأ الانحلال الارتدادى ، « المضاد للثورة » ، باسم التقدم ، فهناك تنبثق أساليب جديدة من القهر ، وأحيانا تكون أكثر فاعلية ، يتعين عليها ، بدورها ، أن تصير مستنفدة أو مدمرة ، قبل أن يتيسر للحرية الانسانية أن تتحقق •

الكاتب : ويللز • هـ • ترويت

أستاذ مســاعد للفلسفة فى جامعــة جنوب فلوريدا •:

ولد فى وشــنطن عام ١٩٣٦ ، وحصــل على الدكتــوراه من جامعة بوسطن عام ١٩٦٨ ، وميادين أبحاثه الرئيسية هى علم الجمال والنظرية الاجتماعية • له مقالات كثيرة فى كثير من المجلات ، ويعد الآن ثلاثة من كتبه للطبع: الآفاق الجمالية، الفلسفة والماركسية ، دراسات فى الوجودية •

المترجم : د • عثمان محمد أمين

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقا، والأستاذ غير المتفرغ، وعضو مجلس كلية الآداب بجامعة القــاهرة • عضو شرف الجمعيــة الفرنسية الديكارتية منذ ١٩٥١ ، ورئيس جماعة أنصار الامام محمد عبده • عضو لجنة الفلســفة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وعضو شرف « الأسرة العالمية » بباريس منذ ١٩٥٠ ، وعضو بلجنة الفلسفة بمجمع اللغة العربية، وعضو بالمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية • صاحب النظرية الفلسفية « الجوانية » وهى أول محاولة لبناء فلسفى جديد فى اطار التراث الاسلامى العربى• حائز على الجائزة الأولى من رابطة مصر فرنسا عن كتابه باللغة الفرنســية عن فلســفة الامام محمد عبــده ســنة ١٩٥٢ • له مؤلفات فلســفية كثيرة ترجمت الى كثير من اللغــات مثل الانجليزية والاندونيسية والأردية والسواحلية •



بقلم : ميشيل دى كوستى
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم أبو زيد

المقـال فى كلمـات

يستهل الكاتب مقاله بتحديد مضمون التكيف الثقافى بأنه عبارة عن التغيرات الثقافية التى تحدث تبعا للعلاقات القائمة بين مجتمعين متباينين . وهو يستلزم قيام اتصال يسمح بالتبـادل الفكرى. ويضرب مثلا لذلك العلاقة بين الغزاة واهل البلاد المغلوبة على أمرها . وقد تكون هذه الاتصالات غير مباشرة عن طريق وسائل الاعلام من اذاعة وصـحف ودوريات وكتب ، أو عن طريق بشرى كالرحالة والارساليات التبشيرية . وتشرب السـمات والأنمـاط الثقافية هو اساس عملية التكيف الثقـافى . ويمكن أن يتسبب هذا التشرب فى تغيرات عميقة فى طرق تفكير الأفراد وتصرفاتهم. ويقتضى التكيف الثقـافى وجود حضارتين متبـاينتين . وللتكيف الثقافى سمة ازدواجية ، فالمستعمرون مثلا نشروا قيمهم ونظمهم فى البلاد التى استعمروها، كما ان المستعمر من جهة اخرى لايقتصر

على اتخاذ الطعام المحلى والعادات الخاصة بالملابس ، وربما استخدام اللهجات العامية، بل يتعدى ذلك الى شعوره دون ان يدرى بانفصاله عن بلده الذى نشأ فيه، كما يصبح باطراد مصقولا بمحيطه الجديد• ولذلك فان التكيف الثقافى لا بد أن يحدث تكيفا فى الجماعات التى تتبادل الأفكار فيما بينها ، كما أن المجتمعات تتأثر ثقافيا بدرجات مختلفة • ويتحدث الكاتب عن التكيف العكسى أو التكيف المضاد، من ذلك رفض احدى الحضارات للنماذج الثقافية لحضارة أخرى • ومن أمثلة ذلك الغاء تدريس اللغة الفرنسية فى غينيا لصالح اللغات الوطنية ، وحث زعماء السود اتباعهم علانية لاظهار معاداتهم لما هو غربى • وأحيانا يكون رفض التكيف الثقافى مبالغا فيه • ويرى الكاتب كذلك أن الصدام بين مجتمعين أحدهما تقليدى والآخر حديث. قد ينتج عنه تداخل ثقافى يؤدى الى خلق مجتمع جديد • ويعالج المقال أيضا ما قد ينتج عن الاتصال الثقافى بين حضارات مختلفة من مظاهر مرضية قد تحدث خللا أكيدا فى الحياة الاجتماعية• وقد تحدث الصدمة الثقافية الناجمة عن تقابل مجتمعين مختلفين اختلافا كبيرا قد يؤدى الى بلبلة الأفكار • وبمعنى آخر قد ينتج أحيانا عن عملية التكيف الثقافى هدم المجتمع التقليدى دون اعطاء بديل جديد له ، فتنعدم المعايير حتى لا يعرف الفرد كيف يوجه سلوكه •

التكيف الثقافى

يوجد مفهوم التكيف الثقافى فى محور التغييرات الاجتماعية التى توجد فى الدول النامية والتى تحدث بعض الاختلال • لذلك فان الاهتمام المتزايد الذى تثيره هذه الدول باستمرار يتطلب استخدام مفاهيم دقيقة ومهيئة للعمل وذلك ضمن أشياء أخرى عند دراسة واقع اجتماعى يخضع لتغييرات اجتماعية عميقة ويواجه فجأة حضارات مختلفة تماما عن حضارة هذه الدول •

وبعد أن نبذل ما فى وسعنا لتحديد ظاهرة التكيف الثقافى ولتوضيحها بمختلف الأمثلة سوف نحلل عملية الاستمداد الثقافى ، الذى يعتبر بصورة طبيعية نتيجة تقابل مجتمعين أو جماعتين من الأفراد، وبذلك يكتسبون معرفة أكبر للبيئة الاجتماعية التى تعتبر شرطا تمهيديا وأساسيا لأى عمل يقام به لكى يسمح لهذه الدول الصغيرة أن تدخل المجتمع الصناعى •

محاولة تحديد عبارة التكيف الثقافى :

يطلق على عبارة « التكيف الثقافى » كلمة Acculturation ، وهى مثل قريبتها الحميمة « الثقافة Culture بالمعنى الذى تفهم به باللغة الفرنسية والذى يدل على معايير طرق تفكير وعمل الأفراد ، وهى كلمة انجلوسكسونية ، وقد ظهرت حوالى

سنة ١٨٨٤ فى كتاب لعالم الأنثولوجيا الأمريكى « ج٠و٠ باول » بمعنى الاستعارة الثقافية ٠ وقد كان لهذا المصطلح نجاح كبير فى الولايات المتحدة ٠ وفى سنة ١٩٣٥ كانت تعمل لجنة فرعية من جمعيـة البحث فى العلم الاجتمـاعى على التحديد الذى ينبغى أن يعطى لهذا المصطلح ٠ وقد اقتبس أيضا علماء الأنثروبولوجيا الفرنسيون هذا المصطلح، فى حين كان يعرف فى انجلترا بالاتصال الثقافى٠ واذا حددنا التكيف الثقافى ــ كطريقة أولى لفهمنا الموضوع ــ بمظهر يتعلق أساسا بالتغييرات الثقافية التى تحدث تبعا للعلاقات القائمة بين مجتمعين مختلفين فانه يمكننا أن نتبين ستة جوانب فى هذه العملية الاجتماعية :

١ ــ الاتصال ٠
٢ ــ الانتقال الثقافى ٠
٣ ــ التقويم أو التقدير ٠
٤ ــ التقبل الكلى أو الجزئى للنمط (أو رفضه) ٠
٥ ــ ادماج ومواءمة المقومات الأولية ٠
٦ ــ الاستيعاب ٠

ان الانتقال الثقـافى يستلزم أولا قيام اتصـال بين مجتمعين أو جماعتين من الأفراد ٠ ونفهم من هـذا المصطلح الأوضاع المـادية التى تسمح بالتبادل الفكرى والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد ٠ ويمكن أن يكون هذا الاتصال ــ قبل كل شىء ــ اتصالا مباشرا ٠ والعلاقة التى توجد بين الأقوام المنتصرة والأقوام المنهزمة تكون من هذا الطراز ، وذلك مثل العلاقات التى أقيمت بين الأراضى المستعمرة والدولة الأم ٠ ويناصر علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع هذا التحديد ويعلقون أهمية كبيرة على الاتصالات المباشرة المستمرة ٠

« يشمل التكيف الثقافى تلك الظواهر التى تنتج عندما تصبح جماعات من الأفراد المختلفى الثقافات على اتصال مستمر تتبعه تغييرات لاحقة فى أنماط الثقافة الأصلية أو فى احدى الجماعتين أو فى الاثنتين » ٠ وفى رأينا أن هذا يقيد كثيرا جدا من الظاهرة التى نحن بصـدد دراستها ٠ فان الاتصـالات غير المباشرة من ناحيـة أو المنقطعة أو حتى الاتصالات المفاجئة وغير المتجددة من ناحيـة أخرى تكفى ــ فى رأينا ــ لاظهار عملية التكيف الثقافى ٠

ولقد ذكرنا أن الاتصالات قد تكون غير مباشرة ٠ ويمـكن أن يحدث انتقـال الأفكار بين حضارتين مختلفتين خلال تكنيكات آلية مثل وسائل الاعلام الجماهيرية (الاذاعة ، الصحافة ، الكتب ، التلفزيون ٠٠٠ الخ) ، أو عن طريق أناس يحملون قيم مجتمع معين (الرحالة ، الارساليـات ، ٠٠٠ الخ) ٠ وهـكذا اذا كان التأمرك Americanization يلاحظ فى عادات الناس المتصلة فى غرب أوربا فان الأخيرة تكون فى موقف التكيف الثقافى ٠ ويستشهد « هير سكوفيتس » أيضا بحالة تثير الانتباه لوحظت بين الهوسا فى نيجيريا ٠ وكنتيجة لعدم وجود الاتصال الطويل المدى بجماعات

ضخمة من الشعوب الاسـلامية الأخرى كانت الوسيلة الرئيسية للتـكيف الثقافى تتوقف على الـكتب المحتوية على التعاليم الاسـلامية • لذلك كان ادماج المعتقدات الاسلامية والوطنية نتيجةللعملية التى كيف فيها الرجال‌الحكماء الفطريون المعروفون بالملامين Mokne ما وجدوه فى النصوص المقدسة بموقفهم الوطنى •

وزيادة على ذلك يوجد التكيف الثقافى حتى رغم عدم استمرار الاتصالات بين شعبين • ان لقاء قصيرا غير متوقع بين مجتمعين كاف ليظهر عملية عرضة لتؤثر فى المقومات الثقافية الأولية • واستمداد السمات والأنماط الثقافية هو أساس العملية، على الأقل فى مفهومها الطبقى • ويمكن أن يسبب هذا الاستمداد تغييرات عميقة فى طرق تفكير أو تصرف الأفراد • اذا فكر المرء مليا ، مثلا ، فى الموقف الاستعمارى فان تأثير الاستعمار لايختفى بمجرد الاتصالات المستمرة بين الدولة الأم ومستعمراتها السابقة • ولكنه يستمر فى ترك بصماته على الأراضى المستعمرة سابقا • ان الدول الأفريقية العديدة التى حصلت على استقلالها منذ سنة ١٩٥٨ وسنة ١٩٦٠ تستمر فى العيش فى موقف من التـكيف الثقـافى حتى رغم أنهـا قد توقفت‌عن الابقاء مع مستعمريها السابقين على نظام ثقافى أو اقتصادى أو اجتماعى •

وهناك مواقف متشابهة فى الدول التى تطبق فيهـا الطبقة المتزعمة سياسة التمييز العنصرى أوالمتميزة المنفصلة للأجناس• ويتبادر الى أذهاننا جمهورية جنوب أفريقيا كمثال على ذلك • ويوجد التكيف الثقـافى فى هذه الدولة الى المـدى الذى توجد فيـه اتصالات بين شـعوب الجنس الأبيض والجنس الأسود حتى رغم أن هذه العلاقة هى علاقة السيد بالمسود ، لذلك فاننا فى هذه الحالة فى موقف استعمارى• وبالاضافة الى ذلك لنفرض أن البيض لا يبقون على أية علاقة مع الأقوام السود فانه يوجد رغم ذلك نوع من التغلغل الثقافى حيث أن العـلم الغربى الحديث يدرس فى الجامعات ومؤسسات التعليم الأخرى المقصورة على المواطنين السود •

وكى نكمل تحديدنا يجب أن نضيف أن التكيف الثقافى‌يقتضى وجود حضارتين مختلفتين • ان العمليـة المتعلقة على وجه الخصوص وليس على وجه الحصر بالنتـائج الاجتماعية للاستمداد الثقافى من طرف واحد أو المتبـادل تكون بهذا العمل نفسه مختلفة عن الأشـكال الأخرى للتغيير الاجتماعى مثـل تلك التى تحدث فى صـلب حضارة معينة ، التصنيع ونتيجته الطبيعية ، التحضر ، مثلا • ومن جهة أخرى فان التكيف الذى حدث نتيجـة تداخل جمـاعات اجتماعية فى‌مجتمع واحد ، اذا كان الموضوع خاصا مثلا بالاتصال بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، لا يدخل فى نطاق التكيف الثقافى •

قد يضيف البعض أنه يجب أن يكون أحد المجتمعين على مستوى ثقـافى أكثر رفعة • وهذا هو رأى « مالينوفسكى » وخاصة رأى « مردوك »• وقد يستطيع المرء

أن يلحظ فى وجهة النظر هـذه تضمينا أساسـيا لنموذج الموقف الاسـتعمارى .
وبصرف النظر عن الآراء القيمة التى يقدمها مثل هـذا المفهوم عن التكيف الثقافى فانها تثير مشكلة شـائكة عن تحديد المعايير التى تسـمح بتقدير قيمة المستويات الثقافية التى يصل اليها مجتمع ما . كيف يجزم المرء بأن حضارة واحدة قد أحرزت درجة من النمو الثقـافى أرفع من حضارة أخرى ؟ هل القيم المأثورة عن الحضـارة الهندية فى مرتبة أدنى من قيم الحضـارة الأنجلوسكسونية التى كانت سـابقا على اتصال مباشر معها ؟ والآن يصنف نظام للقيم الثقـافية فى بناء اجتماعى معـين ، ومن ثم فانه يشارك جوهريا فى النظام الثقـافى . زيادة على ذلك فانه من المعروف عامة أن اليابان، بمحاكاتها للمجتمعات الغربية، أحالت نفسها الى التصنيع والتجديد العصرى، وذلك من النصف الثانى للقرن التاسع عشر. هل هذه الدولة أدنى أو أرفع ثقافيا من الصين ، التى استمدت منها جزءا من مأثوراتها الدينية ، أو من دول العالم الغربى ؟

وهذا التصور عن تفوق حضـارة ما على أخرى يعتبر تعزيزا لفـكرة الصـفة الأساسية من جانب واحد للتكيف الثقافى : ان أفراد أعظم المجتمعات تقدما ينقلون الوسائل الثقافية الخاصة بهم الى المجتمعات البدائية أو التقليدية بالتبادل دون أن يقوموا بأبسط تغيير فى طرق تفكيرهم أو تصرفهم .

السمة الازدواجية للتكيف الثقافى

دعنا ننظر مرة ثانية فى الموقف الاستعمارى . يبدو أنه من المسلم به عامة أن القوى الأوربية التى غزت أراضى كثيرة فى أفريقيا وآسيا وجنوب أمريكا قد نشرت قيمها ووضعت نظمها فى تلك الأماكن ــ باختصار فعلوا ما فى وسعهم بدرجة أكثر أو أقل نجاحا ــ لفرض نظامهم الثقافى وذلك مما ألحق الضرر بالمعتقدات المحلية .

ومن جهة أخرى يبدو أنه كان من العسير تأثر الأوربيين الغزاة والمستعمرين بطرق تفكير وتصرف القوم الذين يستعمرونهم . وقد جنى الأوربى من هذا الاتصال ثروة مادية ، فى حين التقط الافريقى ، مثلا ، ثمرة القيم الثقافية .

وقد أوضح هذا عالم الانترويولوجيا البريطانى « برونيسلاف مالينوفسكى » عندما يقول :

« لكن عندما يقدر المرء قيمة الاشياء المعطاة ويقارنها بالأشياء التى تنتزع يجب على المرء أن لا ينسى أنه عندما يكون الموضوع خاصا بهبات العقل فان الاعطاء يكون سهلا ، فى حين أن التقبل يصبح أكثر صعوبة . ومن جهة أخرى فان المنافع المادية تكون متقبلة بسهولة ، ولكن يتخلى عنها فقط بتحفظ . ومع ذلك فاننا كرماء جدا فى هبات العقل ، مع أننا نتمسك بالثروة والاستقلال والمساواة الاجتماعية » .

وبصرف النظر عن توكيد التمييز بين الثقافة المادية وغير المادية التى سوف

نشير اليها فيما بعد فان هذا النص يؤكد سمة النقل الثقافى غير المادى من جانب واحد . ويمكن ملاحظة هذه السمة عندما يدرس المرء التكيف الثقافى ذا الفترة القصيرة . ويبدو أن الاستمداد بواسطة المستعمر يقصر على اتخاذ الطعام المحلى والعادات الخاصة بالملابس وربما استخدام اللهجات العامية .

ومن جهة أخرى اذا اختبر المرء الاتصالات الثقافية على أساس فترة طويلة فان السمة الازدواجية للتكيف الثقافى تلاحظ بوضوح أكثر . فبينما يقدم الأوربى أولا قيم مجتمع بلده الذى نشأ فيه فانه يصبح دون أن يشعر منفصلا عنه تقريبا ، كما يصبح باطراد مصقولا بمحيطه الجديد . فمن جهة يتغلغل فى عالم ثقافى جديد كلية ويستجيب بالنسبة للعناصر التى لا توجد وحيدة بعد فى تفكيره . ومن جهة أخرى سوف يجد مكانا فى دنيا الانسان البدائى حيث يحتل مكانة ممتازة بسبب مهارته وقوته « السحرية » *

وهكذا فان الأوربيين الذين لهم مراكز اجتماعية مختلفة ومرموقة فى بناء وطنهم الأصلى لن يعتبروا بعد عمالا أو تجارا أو اداريين أو بورجوازيين، ولكن يحتمل أن يصبحوا فى الدول المستعمرة أو المستعمرة سابقا مجتمعا بدون طبقات مشتركين فى نظام من العلاقات مع الجماعات المحلية . ولكن سوف تقل شيئا فشيئا العلاقات مع الدولة الأم ، وسوف يتكون مجتمع شامل ناتج عن اللقاء مع السكان الذين يعيشون على الفطرة .

واذا حللنا التكيف الثقافى فى صورة طويلة الأجل نستطيع أن نلحظ أن التحول لا يعفى أيا من المجتمعات التى تصبح على اتصال فيما بينها . وبسبب المآثر الخاصة بكل من المستعمرين والمحتلين فان أفريقيا مثلا تبدو أنها تتبع طرقا مختلفة عن طرق أوربا الغربية التى يعتقد أنها أورثتها ارثا ثقافيا يؤدى الى الطريق الوحيد للتقدم المادى والانسانى .

وخلاصة القول أن التكيف الثقافى يحدث بالضرورة تكيفا فى الجماعات التى تتبادل الأفكار فيما بينها . ان العلاقات القائمة بين المجتمعات تتضمن مقايضة واستمدادا ثقافيا متبادلا . ولذلك يبدو التكيف الثقافى كأنه أساس ازدواجى بالنسبة للتأثير الذى يحدثه . ومن غير شك فان المرء لا ينكر أثناء تتبعه الانتقال الثقافى بين مجتمعين وجود موقف ينجز فيه غالبا النقل الثقافى فى اتجاه واحد وليس فى الاتجاه الآخر . واذا أراد المرء أن يقيد نفسه بتحديد تقليدى للتكيف الثقافى الذى يشكل وفقا له الاستمداد الثقافى أو التقليد أو حتى النشر مظهرا ضروريا للعملية فانه ينبغى أن نعترف بأنه لا يوجد فى بعض الحالات أى تبادل فى نقل النماذج الثقافية الأصلية .

ومن جهة أخرى ، وهذا هو رأينا ، اذا اعتبر المرء الاستمداد جزءا عاديا

من العملية ولكنه ليس ضروريا أن يحدث فى جميع مواقف التكيف الثقافى فانه يجب الاعتراف بأنه بواسطة الحقيقة البسيطة لتبادل الأفكار بين المجتمعات تحدث تغييرات ان لم يكن اختلال فى المجتمعين المتصلين فيما بينهما ، ولذلك فلا تحدث هذه الأشياء دون وجود أى استمداد ثقافى • وتكون المظاهر المتتابعة للتداخل الثقافى بين الشعوب التى ذكرناها فى بداية المقال نمطا للعملية • ولكن قد يحدث أن تتم بعض من المراحل ولكنها تكفى لتحدث تغيرات ، فى بعض الأحيان تكون تغيرات عميقة ، فى الجماعات التى قامت بالاتصال • ونظرية رفض أحد المجتمعات للأنماط الخاصة بمجتمع آخر توضح هذه الحالة جيدا كما سنرى •

وقصارى القول أن المجتمعات تتأثر ثقافيا بدرجات مختلفة • ويمكن أن يذهب المرء الى أبعد من هذا فيقول أن جميع المجتمعات التى لها اتصال بالمجتمعات الأخرى والتى تقيم الواحدة مع الأخرى علاقات سواء مباشرة أو عن طريق التكنيكات الآلية فانها تكون فى موقف تكيف ثقافى• ومن غير شك فان مفهوماكهذا للظاهرة الاجتماعية هذه يعتبر مفهوما عريضا بدرجة قصوى • وقد نتعرض لخطر مواجهة اللوم الذى سبقت الاشارة اليه فى بداية هذا المقال ، أى استخدام مفهوم غامض وغير دقيق يتعلق بدراسة التغييرات الاجتماعية •

وكى نزيل هذا اللوم يلزم أن نؤكد أنه يجب ملاحظة وجود درجات للتكيف الثقافى • وهكذا فان رفض احدى الحضارات للنماذج الثقافية الخاصة بحضارة أخرى وقطع الاتصالات بين حضارتين يمكن أن يؤدى الى تغيير اجتماعى ، حتى مع أن هذا قد يكون فقط ادراكا لوجود اختلافات ثقافية • وأيضا فان هذا الرفض قد ينتج عنه اعادة تقويم عبادة قيم الأسلاف وتقوية الأساليب التقليدية • ان نوعا من انبعاث ارث الماضى وقومية ثائرة من حين الى حين فى بعض دول افريقيا كان دليلا على الرفض المتحيز ضد القيم الغربية • ولا يحتاج المرء الا أن يأخذ مثلا الغاء تدريس اللغة الفرنسية فى غينيا لمصلحة اللغات الوطنية •

انالأحداث التى وقعت فى روديسيا سنة ١٩٦١ تعطينا مثلا آخر لما يمكن أن يسمى بظاهرة التكيف العكسى أو التكيف المضاد • دعنا نستعيد الوقائع باختصار• ان الأحزاب الوطنية السياسية قد قررت مقاطعة الانتخابات التى نظمتها الأقلية البيضاء فى روديسيا • وما هو أكثر من ذلك أن زعماء السود حضوا أتباعهم علانية ليظهروا معاداتهم لما هو غربى ، وذلك بالاقلاع عن لبس الملابس الأوربية والنظارات وساعات اليد وأشياء أخرى مختلفة هى فى نظرهم رمز للظلم • وأيضا ذهبوا بعيدا فى معاداتهم ، فهم يؤكدون معارضتهم لتصنيع دولتهم الذى اعتبروه عائقا لقومية البانتو •

ان مظهر الرفض فى التكيف الثقافى كثيرا ما يكون مبالغا فيه بقدر ما هو غير

مسبب لنتائج هامة فيطريق حياة الفرد. قد يتصور المرء أن جماعتين أو عدة جماعات يسكنون معا ويربطون أنفسهم بالتبادل التجارى دون الاتصال الذى يؤثر فى نظام المعتقدات أو البناء الاجتماعى للجماعات التى يشملها التبادل . ففى وسط افريقيا، مثلا ، أبقى الأقزام الى حد كبير على طريقة حياتهم التى اتبعوها عدة قرون رغم الاتصالات الكثيرة ، قصر امتدادها أو طال ، التى كانت لهم مع الجماعات الوثنية الأخرى . وفى هايتى أيضا احتفظ الفلاحون الذين من أصل افريقى بطرق معيشة أسلافهم بدرجة كبيرة رغم الوجود الهندى على الجزيرة ورغما عن قرنين من الزمان للاستعمار الفرنسى خاصة . وفى مثل هذا الموقف تصل عملية التكيف الثقافى ، اذا سمح للمرء أن يضعها فى هذا الأسلوب ، الى النقطة التى تقترب من الصفر .

وفى الطرف الآخر لا يمنع الاستمداد الثقافى بواسطة مجتمع مستعمر ناهض فى الأمور التكنيكية ، التى هى من خصائص العالم الغربى ، من حدوث تغييرات عميقة . ان استمرار العلاقات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية أثناء عصر ما بعد الاستعمار سيساعد على دوام التكيف الثقافى بدرجة أكبر . وبالاضافة الى ذلك فان العلاقات القائمة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة أو اليابان تسبب فى هذه الدول تعديلات أقل عمقا وذلك بسبب أن الاختلافات الثقافية بينها أقل تميزا عن تلك التى بين أوربا ، مثلا ، وافريقيا . ولذلك توجد مواقف متطرفة ومواقف متوسطة أو اتصال كلى حيث يكون لمؤثرات الظاهرة التى ندرسها تأثير متداخل بدرجات متفاوتة على المكونات الثقافية الأصلية .

والنتيجة الطبيعية للتكيف الثقافى هى تكوين مجتمع جديد كثيرا ما يحمل الى نظامه مظهرا ذا فاعلية متخلخلة سنصفها باختصار .

اذا أخذنا ، كمثل ، الصدام بين مجتمعين ، أحدهما تقليدى والآخر حديث (١)، فان مواقف مختلفة قد تحدث . ان التداخل الثقافى بين هذين العالمين ينتج عنه تكوين مجتمع جديد وذلك فى نهاية العملية التى وصفنا مظاهرها الأساسية : الاتصال ، الانتقال الثقافى ، التقويم ، التقبل ، الادماج والمواءمة ، الاستيعاب . ورغم أن هذا المجتمع الجديد يختلف عن المجتمعين السابقين الا أنه مع ذلك قد تشكل من العناصر الأساسية لكل من هذين المجتمعين . واذا كانت هذه العناصر متوازنة ومدمجة بيسر فى هذا المجتمع الجديد فان هذا لا يعنى بأية حال أنه سوف يكون متماسكا على نحو محدد عند هذا المستوى . ان درجة التطور التى أحرزها سوف

(١) ليس قصدنا أن نصدر آراء تقويمية عندما نستخدم كلمتى « تقليدية » و « حديثة » ولكن قصدنا هو أن نختار طرازين من مجتمعين مختلفين تماما ، أحدهما يتصف بنوع من المحافظة واعجاب ملحوظ بالماضى والآخر يتصف بنزوع الى التغيير .

تتشكل خطة أو نقطة انطلاق جديدة لتكوين بيئة جديدة تقيم اتصالات أبعد مع الحضارات الأخرى ».

وأحيانا نلاحظ أثناء سير عملية التكيف الثقافي أن جزءا من شعب مجتمع ما يرفض السمات الثقافية الجديدة التى قدمت له أو فرضت عليه ويبقى كنتيجة لذلك على حافة هذا التطور. وقد نلحظ أيضا أن بعضا من المعايير الاجتماعية لمجتمع واحد لا يقبلها المجتمع الآخر . وبصرف النظر عن هذا الرفض الجزئى فانه قد يحدث أيضا أن يكون هذا الرفض لتذويب المعايير الاجتماعية الأجنبية رفضا كليا. وهذه الحالة قد ناقشناها من قبل .

السمات المرضية (الباثولوجية) للتكيف الثقافى

كثيرا ما يسبب اتصال ثقافات مختلفة مظاهر مرضية تتوقف درجة خطورتها على عوامل عدة . وكلما عظم الاختلاف بين الحضارتين المتصلتين فان خطر الاختلال فى الحياة الاجتماعية يتأكد بصورة أكبر . هذا الاختلال الاجتماعى يمكن أن يظهر فى أشكال مختلفة : مقاومة التغيير ، الرفض ، الخروج عن القياس ... الخ .

ويوجد عامل آخر يعمل على ظهور نتائج مرضية . قد يكون التكيف الثقافى حرا وتلقائيا ، وقد يحدث أيضا أن يكون ملزما ومفروضا . وقد يكون التكيف الثقافى متوازنا أو غير متوازن بالدرجة التى تكون فيها التبادلات الاجتماعية أعظم بكثير فى أحد الجانبين منها فى الجانب الآخر . وقد يحدث أن فرض نظام ثقافى يسبب ما قد أشرنا اليه بالتكيف الثقافى العكسى أو ربما يسبب مواقف من الطابع الخارج عن القياس .

ان الصدمة الثقافية التى تحدث نتيجة تقابل مجتمعين مختلفين اختلافا كثيرا قد تؤدى الى أن الأفراد لا يعرفون بعد أى معيار اجتماعى يجب أن يلتزموا به . وبمعنى آخر قد ينتج أحيانا عن عملية التكيف الثقافى هدم المجتمع التقليدى ، مثلا ، دون بناء اجتماعى من جديد نظير ذلك. وتوصف الظاهرة التى لها هذا الطابع بالخروج عن القياس . ويمكن أن نحددها أكثر بموقف تنعدم فيه المعايير حتى ان الفرد لا يعرف كيف يوجه سلوكه . وكثيرا ما يتضح هذا الموقف خلال الاضطرابات الاجتماعية الخطيرة، خاصة ادمان المخدرات والزيادة فى معدلات الزنا والاثم والاجرام والانتحار الخ . واذا كان التكيف الثقافى ، كما حددناه من قبل ، لا يتعلق فقط بالاتصال أو الانتقال الثقافى بين جماعتين أو مجتمعين ، بل يتعلق أيضا بالتأثيرات الناتجة عنها ، فان الخروج عن القياس يبدو كظاهرة وظيفتها سيئة تثير الاضطراب فى التداخل الثقافى بين الجماعات .

ونلحظ المواقف الخارجة عن القياس خلال العصر الاستعمارى عندما شاهدت

المجتمعات البدائية تكوين نظام فرض عليها بواسطة السلطات الاستعمارية وذلك بجانب النظام التقليدى لتوزيع السلطة عندهم · ان وجود هذين النظامين معا كان مبعث صراعات كثيرة وجد الاداريون المستعمرون صعوبة فى تسويتها · وعلى هذا النحو فان السقوط المفاجىء للسلطة الاستعمارية حوالى سنة ١٩٥٩/١٩٦٠ ، والكونغو البلجيكية السابقة أعظم مثل واضح ، شاهد تكوين نوع من الفراغ فى السلطة فى بلاد أفريقية عديدة لمدة طويلة تقريبا ، ولم تستطع أى سلطة محلية أن تضع بناء سياسيا أو اداريا فى استطاعته أن يحل محل السلطة الاستعمارية السابقة ·

وبالاضافة الى ذلك فمن الأبحاث التفصيلية التى كان هدفها كشف الأسباب العامة لتغيب العمال الأفريقيين الذى يختلف معدله بين ١٥٪ و ٢٠٪ وضح أنه لا تزال حتميات العادات تفسر الى حد كبير تغيب العمال الوطنيين ، ذلك التغيب غير المبرر من وجهة نظر أصحاب العمل الغربيين · فمثلا ينتمى عامل الى احدى العشائر التى قد توفى أحد أفرادها فيواجه هذا العامل لا بنظام قيم الأسلاف التى تجبره على العودة الى قريته تحت مرارة المجازفة باستنكار عشيرته أو حتى بادانتها له بل أيضا بالمعايير الحديثة التى تمنعه من ترك عمله· وهذا الصراع فى المعايير يساعد على ظهور المواقف الخارجة عن القياس ·

الاستمداد فى عملية التكيف الثقافى

قد شاهدنا كيف أن الاستمداد الثقافى لم يكن خطوة اجبارية فى عملية التكيف الثقافى الا فى سياقها التقليدى ، ولكنها مع ذلك تكون عاملا هاما جديرا بانتباهنا ·

ان جميع مجموعة الأدب الأنجلوسكسونى تميز صنفين عظيمين من الاستمداد: عناصر الثقافة المادية ، وعناصر الثقافة غير المادية · وتشمل الثقافة المادية أشياء مادية يمكن ملاحظتها مباشرة قد خلقها الانسان وأثرت فى طريقة معيشة البشر ، التدفئة المركزية والتليفون والسيارات ، مثلا · ونستطيع أن نجمل الثقافة غير المادية فى مجموعة من المعتقدات الأيديولوجية والدينية والفلسفية أو العلمية · ويعطينا «لنتول» ، من جانبه ، تمييزا ذا ثلاثة أقسام · فهو يميز بين الظاهرة المادية أو نتاج الصناعة ، والظاهرة الحركية أى الادارة الواضحة التى تتضمن بالضرورة الحركة ، والظاهرة السيكولوجية التى تتكون من المعرفة والنظم القيمة التى يشترك فيها أفراد المجتمع ·

وهذا التمييز ، الواضح ولو أنه يبدو نظريا ، يسبب مشاكل تتعلق بالتطبيق عند القيام بالبحث فى هذا الحقل • ولكن اذا طرحت تلك المشاكل جانبا فان التمييز بين العناصر المادية وغير المادية لا يكون شيئا ذا فاعلية فى سبيل تحليل التغيير الاجتماعى وخاصة فى سبيل تحليل التكيف الثقافى الذى هو أحد مظاهره • وهذا التصنيف للظاهرة الثقافية يحاول أن يكون عمليا بمعنى أنه يسعى كى يظهر أن الشعوب التقليدية تحاكى أولا المظاهر المادية للثقافة أى المظهر الذى يبدو فى شكل مادى ويستوعب بسهولة أكثر • وبعد ذلك يستوعبون فى مرحلة متأخرة للتكيف الثقافى العناصر غير المادية •

وفى الحقيقة ليس هذا هو الواقع • اذا حدد المرء الثقافة كمعيار قياسى لطرق التفكير فان تلك الطرق تملك وجودا موضوعيا فقط خلال تجسيدها فى أعمال • لذلك تشمل الثقافة عناصر أو أعمالا واضحة ، أى السلوك الذى يكيف ، عن قصد أو بطريقة أخرى ، العالم الخارجى للبشر والأشياء ، وعناصر مختفية أى الاستنتاج العقلى الذى يحدد هذا الطابع للعمل أو ذاك• وهكذا كما سنرى• فعملية الاستمداد، بناء على ذلك ، وعملية التكيف الثقافى نفسها ، تختلف فى الدول الصناعية الناهضة وفى الدول النامية •

ان تبنى نمط فى الدول الصناعية كثيرا ما يعتبر كسلسلة من التغيرات تحدث مجموعة من التكيفات بواسطة الأجزاء المختلفة للكل الذى يشكل نظاما ثقافيا معينا حتى أنه يصعب جدا أن نلحظ فى نهاية عملية الاستيعاب النمط الأصلى الذى استعير من الحضارة الأجنبية • ويندر وجود سمة ثقافية متبناة كما هى دون أن تقع تحت أى شكل من التكيف، وهذا ينعكس فى المجموعة التركيبية التى تدمج فيها• ان التقليد لا ينحصر فى المظهر الخارجى للنمط بل أيضا يتعلق بالاستنتاج العقلى • ويشمل فى المقام الأول الظواهر الواضحة للنمط أى العمل الملاحظ الموضوعى وأيضا أشكال التفكير أو الأفكار التى تحدد سمات العمل نفسه •

وفى الدول التى يكون فيها التقليد الصناعى أكثر حداثة وخاصة فى البلاد المستعمرة سابقا يندر انجاز عملية التقليد بالطريقة التى شرحناها توا • ان استمداد السمات الثقافية كثيرا جدا ما ينحصر فى المظاهر الخارجية للأنماط التى انتشرت عن طريق الاستعمار الأوربى • وهكذا فان عملية التقليد تظهر ازدواجا واضحا لا يوجد بعد فى الطور النهائى لهذه العملية عندما تحدث فى الدول الصناعية •

والواقع أن الازدواج الثقافى الواضح للشعوب الصغيرة كثيرا ما يشاهد فى الحالة التالية • يلبس الأفراد ملابس على الطراز الأوربى ويتبنون لغة مستعمريهم

السابقين ويقلدون طريقة معيشتهم ويستخدمون تكنيكاتهم ، ولكنهم مع ذلك يحتفظون بطرق تفكيرهم القديمة٠ واذا تعلموا تكنيكات جديدة فى أوربا فان النخبة فى تلك البلاد يجدون صعوبة كبيرة فى تحويرها أو تكييفها للاحتمالات المحلية لأنهم لا يستطيعون أن يستوعبوا الاستنتاج العقلى ، أى الأجزاء غير الظاهرة، للتكنولوجيا الغربية ٠

وفى حالتهم يبقى تبنى النماذج الثقافية الأجنبية ظاهرة ثانوية اذا نظر اليها فى منظور تكيف ثقافى أى فى داخل اطار وسائل الاتصال بين مجتمعين مختلفين ٠ ومن جهة أخرى سوف نشاهد أنه اذا أمعن المرء الفكر فى عملية التزويد الثقافى التى نعنى بها انتشار النماذج الثقافية داخل المجتمع نفسه فان التكنيكات المستمدة تفرغ فى صيغة ثانية داخل هذه النخبة ٠

وهذه الاعتبارات تسمح لنا بأن ننبذ النظرية التى تميز ثلاثة مظاهر أو ثلاثة جوانب للتكيف الثقافى : النقل الثقافى وهو العملية التى ينجز بواسطتها الانتقال الثقافى ،التجريد الثقافى الذى فيه يفقد تماما المجتمع المقلد النماذج الثقافية الخاصة به ، وأخيرا التكيف الثقافى بالمعنى الدقيق ، أو قبول النماذج الأجنبية بواسطة هذا المجتمع ٠ الواقع أن أفراد أى مجتمع لا يتخلصون من نماذجهم الثقافية الأصلية، ولكن اذا دخلت عناصر جديدة فانها تفرغ فى صيغة ثانية فى ضوء فلسفتهم فى الحياة ٠

المظاهر المنهجية للتكيف الثقافى

ان تحليل البيئات الاجتماعية التى تخضع للتكيف الثقافى يثير مشاكل منهجية هامة ، وسوف نبحث هنا بعضا من مظاهر هذه المشاكل ٠ قد يسأل سائل عن أنسب منهج لاستقصاء مثل هذا الواقع الاجتماعى المعقد٠ هل للمرء أن يقضى على هذا الواقع الاجتماعى ويعتبر الاتصالات الثقافية مجرد وضع مجتمعين عالميين متجاورين أو بالأحرى يعتبر هذه البيئات ككل واحد متماسك تمتزج وتنصهر فيه العناصر المتغايرة ؟ ان النمط الازدواجى الذى يستخدم عادة كطريقة لدراسة الدول النامية يعطى أفضلية لفهم الواقع الاجتماعى عند أخذ الانقسام الى مجموعتين ، وهو يعتبر تقليدا حديثا ، كنقطة البداية ، وبناء على ذلك يعطى أفضلية الى فصل الواقع الذى يرتكز على هذين القطبين ٠

ولا توجد فى رأينا « ازدواجية » بالمعنى الذى تكون بمقتضاه النظرية مجموعة مصنفة منهجيا ومفسرة للواقع ٠ ولكن توجد فى رأينا طرق لفهم الموضوع تختلف من نقطة الانطلاق البسيطة لتحليل موقف معين الى النمط المتطور الى أقصاه ، بالمعنى الذى استخدم فيه « ماكس فيبر » هذا المفهوم ٠

ويمكن تلخيص النمط الازدواجي هكذا : ان الظاهرة الاجتماعية التى نلحظها بين شعوب البلاد النامية تتصل بطرازين مختلفين من أسلوب الازدواج فى المجتمع الشامل · وهذان الأسلوبان محدثان من أحد الجوانب وتقليديان من الجانب الآخر · ويوجد أصل هـذه الظاهرة فى ارث الاستعمار الأوربى · فقـد صب المستعمرون الأوربيون فى تلك المجتمعات أساليب من التفكير والعمل خاصة بهم ثم اصطدمت هذه بالتكنيكات التقليدية حتى أنه قد وجد طرازان من ثقافات مختلفة اختلافا كبيرا ·

وفى رأى بعض علماء الاجتماع الذين يشايعون طريقة الفهم هذه أن هذه النظم الثقافية متنـافرة بمعنى أن الثقافة القـديمة تشكل كلا متماسـكا وغير منفصل اجتماعيا ·

واذا حدث أن اختفى أحد العناصر بسبب التكيف الثقافى فان الصرح الذى يرتكز عليه نظام المعتقدات التقليدية ينهار بأكمله · وفى هذه الحالات لا يتصور أن العقلية القديمة تستطيع أن تكيف نفسـها تصاعديا كى تتصل بالحضارة الحديثة ، أو أن العوامل التوضيحية الحـديثة تستطيع أن تطعم فلسـفة الحيـاة عند الشعوب التقليدية ·

وبحسب هذا المفهوم الدقيق للنمط الازدواجى فان المجتمع التقليدى يشـكل نوعا من بلد محاط بأرض أجنبية أو جزيرة صغيرة متميزة عن مجتمع أعرض ، ويمكن فقط تحليله بالرجوع الى نظام تدرجه الطبقى· وهذا هو السبب فى أن المؤيدين لهذا المفهوم كثيرا ما يتحدثون مسـتخدمين المصطلح « انغلاق ازاء التطور » كى يشرحوا استحالة تعايش هذين النظامين غير المتشابهين ·

ومنذ ذلك الوقت اكتسب هذا النمط مقدارا من المرونة ·

والآن يتحدث عن الانغـلاق ازاء التطور بأقل ممـا نتحدث به عن وضع كابح للتطور متجهين الى اثبات أنه بينما لاتزال الثقافة التقليدية باقية على اختلافها اختلافا عميقا عن الثقافة الحديثة فانه يمكن أن تكيف باتصالها بالثقافة الأخيرة دون أن تقوض أسس النظام ·

وبحسب هذا المفهوم الذى يعمل كعلاج للنمط الازدواجى المطلق الذى اوجزناه من قبل فان تأثير العامل التقليدى يبطىء عملية التجديد ·

والخطوة التالية ـ كنتيجة لذلك ـ هى مدى امكان تفسير المجتمع بالرجوع الى المجتمع الشامل الذى يقع فيه ·

وبدلا من الحديث عن بلاد محاطة بأرض أجنبيـة ثم أصبحت ذات ثقافة حديثة وعن جزر ذات حضـارة عصرية أو ذات تصنيع تام فى حضارة تقليدية فان علمـاء

الاجتماع يكونون أكثر ميلا الى أن يعتبروا النمط الازدواجي كوجود لاطار مضاعف في الأفراد يرجع اليه عند العمل .

ويستخدم « الان تورين » مفهوم « الضمير المجزأ » ليصف الأفراد الذين يتبعون أحيانا الأنماط التقليدية الأصلية وأحيانا أخرى يتبعون الأنماط الحديثة ذات الطابع الغربي ، وذلك حسب الموقف الذى يواجههم .

ورغم أنه ينبغى على المرء ألا ينكر وجود نوع من الواقع ثنائى التبلور في المستوى ذى الظاهرة المصاحبة ، فان النمط الازدواجي يقوم أساسا على دراسة مجتمعين مميزين وتحليلهما من حيث أن لكل منهما حتميته الخاصة به ويحللان - الى أبعد الحدود - مستقلين عن تركيبهما الشامل . وعلاوة على ذلك فمن المؤسف ألا يدرس التكيف الثقافى على المستوى المنهجي من وجهة اكسابه قوى محركة خاصة به أفضل من اكساب مجتمع مقسم لا يضع فى اعتباره التكوين الاجتماعى الأصلى للتكيف الثقافى .

وسوف تسمح لنا الأمثلة أن نلقى الضوء على هذه المشكلة ونؤكد الخطأ الذى فى رأينا قد يكمن فى تحليل الشعوب التى خضعت أو تخضع للتكيف الثقافى بأخذ أفكارهم وايحاءاتهم أحيانا من النماذج الأصلية التقليدية وأحيانا أخرى من النماذج الثقافية الحديثة والقدرة على توجيه سلوكهم فقط داخل هيكل مجتمع بدائى أو مجتمع صناعى على التوالى .

وسوف نأخذ أولا مثلا من عالم الاجمة الافريقية . فى معظم القبائل التى تقطن السفانا أو الغابات الاستوائية لأفريقيا الوسطى يكفل شعب الأجمة حياتهم عن طريق القنص وصيد الأسماك والجنى . وكعمل اضافى ثانوى يقومون أيضا ببعض من الزراعة البدائية . وهناك حقيقة معروفة ، ذلك أنه فى كثير من القبائل الصغيرة لمنطقة «كويلو» وعلى جانب نهر الكونغو وأيضا فى بعض قبائل البانتو بأنجولا وزامبيا يعتبر العمل فى الأرض عموما كنشاط مخز يترك عادة للنساء أو العبيد . وحسب التقاليد فانه يصعب - كقاعدة عامة - تصور رجل يستخدم بيده معولا أو معزقة يقلب بها الأرض . ويفضل الرجال ان يقوموا بنشاطات أكثر رفعة ، مثل تربية الماشية أو القنص أو صيد الأسماك . وحيث أن المجتمعات البدائية اخذت تدريجا فى الاتصال فانهم أخذوا يتبادلون محاصيلهم الفائضة . وبعد ذلك لوحظ أن الظاهرة التالية تأخذ مكانها بين القبائل : نزل الرجال معا كى يفلحوا الأرض ، ولكن كان هناك تمييز دقيق بين محاصيل الحصاد . كان يحتفظ بمحصول النساء لاستهلاك الجماعة فى حين أن محصول حصاد الرجال كان ذا طابع تجارى بمعنى أنهم كانوا يقايضون به على المحاصيل التى كانت تحتاج اليها القبيلة . ثم نلحظ أن هذه المحاصيل « الخاصة بالذكور » أخذت تزداد وحملت لتمد الأسواق

المحلية وذلك نظير ما يحصل عليه المنتجون من دخل نقدى ، أو كانت تباع مباشرة الى التجار. ان المشاريع الزراعية الأولى التى أخذت تستقر فى منطقة الأجمة واجهت في الأيام الأولى صعوبة شديدة فى استخدام عمال زراعيين • وسرعان ما فطن الى أن طلبهم للعمل يعتبر خزيا لهم ومع ذلك فقد حطمت الشركات الزراعية الكبيرة هذه الآراء بافهام هؤلاء القوم بأنهم سوف يحصلون على مرتب نظير عملهم •

والحقيقة أن الصراع على القيم التى جعلت المجتمعات الأوربية تصطدم مع الوطنيين كان قد سوى تدريجا بافراغ النظام الاجتماعى للبانتو فى صيغة ثانية ، ذلك النظام الذى أسبغ عليه هيبة خاصة ولا يمكن أن ينظر اليهم ، نتيجة لذلك ، كعمال الحقل ولكن ككاسبين (مشتغلين مقابل راتب) • وهذه العملية الطويلة للتكيف الثقافى التى شرحت توا لم تكن نتيجة تجاور نظامين لكل منهما قيمته أو اندماج مجرد وبسيط للنظام الأوربى لالحاق الضرر بالنظام التقليدى (لا تزال الفلاحة التى لا تكافأ من نصيب السيدات) ولكن نتيجة تفريغ المعايير الأجنبية فى صيغة ثانية بلغة النظام التقليدى •

وبهذه الطريقة فان الحركة المسيحية التى قوبلت بقدر من النجاح بين الجماعات الوثنية للباكونجو تظهر انبعاثا لارث الاسلاف وتفريغا للمبادىء الدينية المستمدة من التعاليم اليهودية المسيحية فى صيغة ثانية • وتفسيرات النصوص الدينية ، للقوم السود فى أمريكا (كوبا ، هايتى ، والبرازيل خاصة) تؤكد ظاهرة مشابهة • ان آلهة هؤلاء القوم قد وفق بينهم وبين القديسين الكاثوليك • وفى مجال علم المداواة لاحظ علماء الاثنولوجيا أن المرضى فى المحيط الحضرى لأفريقيا السوداء كانوا يستعينون بخدمات المعالجين للأمراض والأطباء الأوربيين على التعاقب • اذا ذهب مريض فى أول الأمر الى معالج الأمراض فى القرية قبل زيارته الطبيب الأوربى فان هذا يوضح أن العلاج الذي يقوم به الاخير (الطبيب) أكثر تأثيرا • ولذلك فلا يوجد فى هذه الحالة أى صراع للقيم بل انه تتمة للنظامين أو -لنكون أكثر دقة- ادماج الدواء العصرى فى علم العلاج التقليدى •

ونعتقد أنه من الخطأ أن نعتبر تبنى التكنيكات والعادات الاجنبية بواسطة أفراد مجتمع كتنازل عن انماطهم الثقافية خلال عملية تجريد ثقافى • انهم فى الحقيقة يتبنون فقط المعايير الأجنبية بلغة نظام المعتقدات الخاصة بهم •

ان الأفراد فى المجتمعات التى فى موقف تكيف ثقافى يلقحون بالثقافة • وهذا يشكل نظاما متماسكا ينسج فى صلبه عناصر متباينة توجد أصولها فى تقاليد الأسلاف وارث الاستعمار ، اذا أخذ المرء كمثل البلاد الافريقية التى حصلت على

استقلالها أخيرا ، أى الأمكنة التى يحدث فيها التكيف الثقافى بحدة قصوى ويسبب تكيفات عميقة • ورغم أن هذا التكيف قد يكون مركبا فان هذه الثقافة مع ذلك تعتبر وحدة بسبب انصهار العناصر الأجنبية داخل النظام التقليدى • ويبدو اذن أنه فى البيئة الحضرية والزراعية للدول الصغيرة التى تأثرت بالعصرية لايشير الأفراد أحيانا الى أنماط ثقافية تقليدية وأحيانا أخرى الى أنماط عصرية أو حتى يشيرون الى تجاوز نظامين ثقافيين مختلفين• أن الأفراد بالأحرى يستجيبون الى موقف معين بلغة مبادىء الاستجابة التى يجدونها فى ثقافتهم نفسها والتى تكيف خلال انصهار وادماج المعايير الأجنبية بهذا النظام •

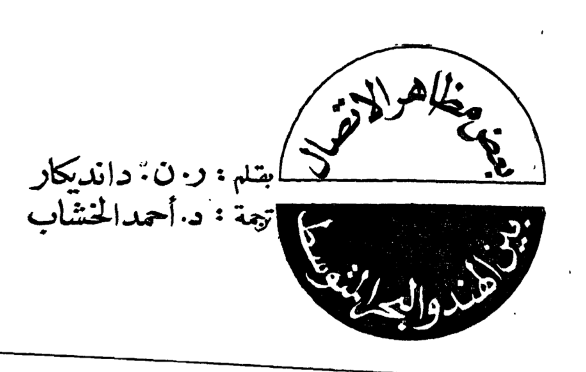
ويجب أن يدرس التكيف الثقافى كظاهرة شاملة متضمنة تحليل ثقافتين أوعدة ثقافات تعتبر هيئة من شبكة لعلاقات فردية متبادلة ، فذلك أفضل من النظر الى الحضارات المتصلة كنباتات مطلقة متميزة تستسلم كل منها الى حتميتها •

الكاتب : ميشيل دى كوستى

ولد عام ١٩٣٧ • له دراسات فى القانون وعلم الاجتماع • ويشرف الآن على الأبحاث التى تجرى فى معهد العلوم الاجتماعية فى جامعة لييج • ويعالج فى مؤلفاته التحولات الثقافية فى البلاد النامية ، وعلى الأخص فى أفريقيا السوداء ، تلك التحولات الناجمة عن تصنيع هذه البلاد • ومن مؤلفاته العديدة : أثر الثقافة فى الحياة الصناعية ، تأملات ونظرات فى الحياة الاقتصادية والظواهر الريفية فى أفريقيا الوسطى •

المترجم : د • احمد عبد الرحيم ابو زيد

أستاذ كرسى الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب بجامعة القاهرة • حاصل على الدكتوراه من جامعة أدنبره عام ١٩٥٤ • من مؤلفاته : المدخل الى اللغة اللاتينية • تاريخ الأدب الرومانى • من الأدب التمثيلى اللاتينى «فورميو والحماة» للكاتب ترنتيوس• من الأدب التمثيلى اللاتينى « كنز البخيل والتوأمان » للكاتب بلاوتوس • مقتطفات من أغانى الشاعر الرومانى هوراس •



المقال فى كلمات

يعالج هذا المقال كما يستدل من عنوانه مظاهر الاتصال بين الهند وعالم البحر المتوسط فى أربع فترات تاريخية : فترة الاتصال بين الهند وبلاد ما بين النهرين ، وفترة العلاقات الهندية الأناضولية ، والفترة الاغريقية الهندية ، والفترة الهندية الرومانية.

ويحدثنا الكاتب انه منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة كان يقطن الأناضول وفلسطين وما بين النهرين وايران والشمال الغربى للهند شعب ينتمى الى سلالة جنسية واحدة : جنس البحر المتوسط الذى كان من أوائل من مارسوا الزراعة وانشأوا المدن. ويرجع الاتصال بين حوض السند وما بين النهرين الى حوالى ٢٥٠٠ ق.م ، وكانت حضارة الهند فى ذلك الوقت تفوق حضارة مابين النهرين ، وكان هذا الاتصال يعتمد اساسا على نشاط التبادل التجارى .

أما العلاقة بين الهند والأناضول فيمكن الاستدلال عليها من وجود بعض الفاظ فى لغة دولة الميتانى مشتقة من أصل هندى. ولكن العلاقة بين البلدين لم تكن علاقة مباشرة. ومن أوجه الاتصال الهامة بين الهند والبحر المتوسط ذلك الذى حدث بين الهنود والفينيقيين . وكانت هذه الاتصالات اتصالات تجارية لم تصحبها اتصالات حضارية أو ثقافية .

أما من حيث الاتصال بين الهند والاغريق فعلى الرغم من أنهما ينتميان الى الغة واحدة الا انهما عندما التقيا بعد عدة قرون شعر كل منهما بأنه غريب عن الآخر . ولقد ساعدت حملات الاسكندر المقدونى الى الشرق على توثيق الصلات المباشرة بين الاغريق والهنود. ومع أن الاتصال المباشر بين الهند والاغريق انقطع بعد وفاة « أسوكا » الذى اعتنق البوذية ، فقد استمر بين الهند والاغريق عن طريق الاتصال بين الهند والرومان . وهناك دلائل على قيام تجارة نشيطة بين الامبراطورية الرومانية ومملكة تاميل التى كانت تقع فى جنوب شبه جزيرة الهند . ويبدو انه كان للفلسفة الهندية أثر كبير على مفكرى العالم الاغريقى الرومانى . وهناك أيضا مايبرر وجود نوع من التأثير الاغريقى على تطور ونمو الدراما فى اللغة السنسكريتية . وأهم ما يمثل مدى الاندماج بين الثقافة الهندية والاغريقية الفن الجاندهارى الذى يطلق عليه الفن الاغريقى البوذى .

دعنى أبدأ بتحديد مفاهيم موضوعى من الناحية الجغرافية ، ووفقا لترتيب الوقائع التاريخية ، ولتحقيق الهدف من هذا المقال فانى قد استخدمت عبارة « عالم البحر المتوسط » للدلالة على تلك البقعة التى يطلق عليها اسم الشرق الأدنى ، والتى تحوى فى نطاقها : آسيا الصغرى، والهلال الخصيب (وتقع مصر على حدودها الغربية، كما تشكل سوريا وفلسطين شريطها الغربى ، وتكون بابل وأشور قوسها الشرقى). هذا من جانب ، ومن الجانب الآخر اليونان وروما .

وأما « الهند » فاقصد بها شبه القارة الهندية .

هذا ، وسوف أعالج موضوعى على مدى أربع فترات تاريخية على وجه التقريب، وسأحددها – على سبيل التوضيح – بفترة الاتصالات بين الهند وبلاد ما بين النهرين (فى العراق) ، وفترة العلاقات الهنـدية الأناضولية (تركيا) ، والفترة الهيلنية (اليونانية) الهندية ، وأخيرا فترة الاتصال بين الهند وروما ٠

ويتمثل الجانب الهام لحضارة الهند فى فترة ما قبل التاريخ فى حضارة وادى السند ، المعروفة الآن بحضارة الهاربان ، تلك الحضارة التى ظهرت الى النور بكل تشعباتها فى غضون الأربعين سنة الأخيرة تقريبا ٠

وبناء على ما أسفر عنه فحص الفترات التاريخية المتتابعة التى مرت بها مدينة الموهينجوادرو فان معظم علماء الآنثروبولوجيا والاستنوجرافيا يميلون الآن الى رفض النظرية القـائلة بأن شـعب الموهينجوادرو يتألف من مزيج من السـلالات الزنجية والسكان الأصليين لاستراليا وقبائل الفيدا ، ويفترضون أن شعب وادى نهر السند ينتمى الى فرع سلالة البحر المتوسط التى تفرعت عنها السلالة الأوربية الأصيلة(١)٠

وفى هذا المجال يمكن أن نستشهد بقول العلامة « ماريوكابيرى Mario Cappieri» أنه منـذ أربعـة آلاف عام قبـل الميـلاد ، ومن المحتمـل أن يكون قبـل ذلك ، كانت تستوطن الشمال الغربى من الهند سلالة ذات رأس مستطيل ، له يافوخ عال، ووجه طـويل ، وأنف بارز مدبب (٢) ٠ وفيمـا يتعلق بالأقاليم التى كانت تضـم الأناضول وفلسـطين وما بين النهرين وايران والشـمال الغربى للهند يمكن للمرء أن يفترض وجود نمط سلالى موغل فى القدم ، كان منتشرا انتشارا واسعا ، وكان متجانسا فى صفاته الى حد ما، وكانت تلك السلالة تعيش فى جماعات محددة مستقلة، فى المناطق المتنوعة من الاقاليم المشار اليها آنفـا ٠ وينتمى هذا النمط من السلالة الى المجموعة الكبرى للجنس البشرى التى أطلق عليها جوزيف سيرجى J, Serge اسم « سـلالة البحر المتوسط » ، وأغلبية الأنثروبولوجيين الذين فحصوا المخلفات الانسانية التى وجدت فى حفريات الأقاليم الممتدة من بحر « ايجه » الى وادى السند، والذين درسوا جماجم وهياكل ما قبل التاريخ دراسة دقيقة متفحصة ، يسلمون بأن أشكال السلالة ذات الرأس المستطيل تنتمى الى سلالة البحر المتوسط ، ومن المعتقد أن الشعوب التى تنتمى الى النمط السـلالى للبحر المتوسط هى من أوائل الجماعات التى أسهمت مبكرا فى ممارسة الزراعة وفى اقامة حضارة المدن ، التى انتشرت على طول المنطقة الممتدة على حوض البحر المتوسط، من الشرق وحتى شمال غرب الهند ٠

ولقد افترض أن ظهور مدن وادى السند يعزى الى نوع من الانفجار أو الثورة الثقافية التى نتجت عن تغلغل جمـــاعة عنصريةجديدة الى الهند ، تحدد بأنهاواحدة

---

(١) Cf. VP. Alekreyev, in Indiya v Drevnosti-Sbornik States, Moscow 1964.

(٢) Proceedings of the World Population Conference, Vol. II, 761-792.

من شعوب ما بين النهرين ، مع أنها من العباديين Abaidians الذين هزمهم وطردهم السومريون .

وأيا كان الأمر ففي ضوء الحقيقة التي تقرر أن المخلفات الهيكلية التي تم التنقيب عنها في مواضع مختلفة من حضارة حوض السند كانت محدودة ، فانه يبدو من المجازفة أن نؤكد أن منشيء هذه الحضارة كانوا ينتمون الى النمط السلالى الشرقى الذى يرجع الى الأجناس الآسيوية التى تنتمى الى السكان الأصليين للبحر المتوسط، وليس هناك بطبيعة الحال شواهد توحى بهجرة جماعية لشعوب من بلاد مابين النهرين الى اقليم السند ، كما أن هناك مبررا للاعتقاد بأن الأنماط الاجتماعية السياسية لحضارة كل من بلاد ما بين النهرين ووادى السند تتميز كل منهما عن الأخرى تمام التميز، وبالاضافة الى ذلك يجب ملاحظة أنه بجانب النمط السلالى للبحر المتوسط لوحظ أن بقايا الهياكل التى وجدت فى حوض السند تحتوى كذلك على أنماط سلالية آرامية أو ألبانية ذات رؤوس قصيرة .

هذا بالاضافة الى أنه في ضوء الشواهد المتاحة يمكن الافتراض باطمئنان أن الهارباتيين نشأوا فى التربة المحلية ، وأن حضارتهم كانت تطورا تلقائيا ذاتيا ، ومع ذلك كانوا على اتصال نشيط وفعال بغيرهم من الشعوب الأخرى ، ومن بينها سكان ما بين النهرين ، الذين كانوا ينتمون الى مجموعة سلالات البحر المتوسط ، والذين أخذوا عنهم بعض أساليب الحياة الحضرية .

ويمكن ارجاع الاتصال بين حوض السند وما بين النهرين الى الفترة السرجونية Sargonide من التاريخ السومرى (حوالى سنة ٢٥٠٠ ق م) ، ويبدو أن هذه الفترة استمرت على الأقل حتى سنة ١٩٠٠ قم . ويمكن أن نشير فى هذا الصدد الى ماوجد مثلا من أشياء كانت أنماطا أصلية فى المناطق التى أجريت فيها الحفريات والتى تمثل الحضارة الأخرى . ومن قبيل ذلك على سبيل المثال بعض الأوعية التى تأخذ شكل الحرقفة التى وجدت فيما قبل التاريخ فى حضارة ما بين النهرين وحضارة عيلام . والعظمة التى تتميز بها حضارة وادى السند التى تأخذ شكل الكلية ، بجانب نوع من الخرز المستدير المحفور ، ونوع من التمائم البرونزية ، وتلك الأوشمة القرمزية التى عرفتها الأسر القديمة ، وكانت تعصب بها رأس ثور يحمل بعض الأشكال الفخارية . وذلك كله يجعلنا نستبعد الزعم بوجود تماثل تام بين الحضارتين ، والشاهد على صحة ذلك تلك الاكتشافات التى عثر عليها فى المقبرة الملكية للملك سومر التى من بينها شكل قرد جاث عثر عليه فيها . ونوع من أنواع أردية الشعر التى تشبه ما اكتشف فى الهاربان من اكتشافات على شكل تماثيل مصنوعة من الطين المحروق ومحفورة فى الأرض . وزسم طينى لجسم ذكر ربما كان له علاقة بالتناسل ، وله بطن مفرط فى السمنة وأرداف بارزة وثقوب فى الاكتاف لربط

الأذرع المتحركة وذيل قصير · وغير ذلك مئات من الأشياء التى اكتشفت فى أماكن مختلفة من بلاد ما بين النهرين ·

كل ذلك وما اليه يزيد الأمر ايضاحا · ولعل « التيراكوتا » أو القالب الطينى الذى يرجع الى أصل هندى ، والذى اكتشفه البروفسور سبيسر فى حفرياته فى منطقة « تيب جوارا » ، يوحى أيضا بوجود ارتباط زمنى أساسى بين الحقبة الاكادية القديمة لحضارة ما بين النهرين والحقبة التى كانت فيها الحضارة الهارابية فى أوج ازدهارها (١) ، ويمكن الرجوع هنا أيضا الى بعض التماثيل التى عثر عليها آخيرا ، ويطلق عليها اسم الاهات العيون (التى تحمى من الحسد) ، وقد اكتشفت فى وادى نهر السند ، وفى مناطق الحفريات فى غرب آسيا ·

وقد يكون من الصواب الاشارة الى أن الهندسة المعمارية كانت مهنة هامة وشائعة فى كل من وادى السند وسومر · كما أنه لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة المحضة ذلك التشابه بين الاقواس التى وجدت فى « تل أسمار » وفى « موهنجوادرو » وما عثر عليه من الآبار المستديرة المصنوعة من الآجر المتقطع والحواجز المصنوعة من الطين المحروق أو الأحجار التى كانت تتخذ ستائر للنوافذ· ويمكننا أن نقول فى هذا المجال أن معالم حضارة الهند تشير الى ما طرأ من تقدم وتحسن على بعض الوسائل الفنية ، مما يوضح أن رسائلها الفنية كانت تفوق تلك الوسائل التى اختصت بها حضارة ما بين النهرين · ويمكن التأكد من ذلك من خلال المقارنة بين شوارع أور غير المنظمة ومثيلاتها من شوارع موهنجوادارو المخططة ·

هذا ويمكن أن نتخذ من « الأختام » دليلا مقنعا على ذلك ، وفى حفريات سومر عدد من أختام حضارة السند يبلغ ثلاثين خاتما سنديا · ويمكن أن يفهم من هذا أنه كان هناك اتصالات تجارية بين الاقليمين · ومما يؤكد وجود صلة تجارية بين الهند وغرب آسيا ما تم اكتشافه من أختام فى جزيرة البحرين على الخليج العربى ، اذ أن تلك الأختام تشبه أختام حوض السند (٢) · وفى ضوء هذا يتضح لنا أن حضارة السند كانت حضارة بحرية ، ولم تكن مجرد حضارة مغلقة على نفسها · ولا شك أن « لوثال » التى كانت تعد مؤشر امتداد وانتشار للحضارة الهارابية الى الجنوب كانت ميناء له حوض لبناء المركبات البحرية ، وكانت مركزا

---

(١) George F. Dales, «Of Dice and Men», IAOS, 68, 14-23

(٢) انظر ما كتبه « ج· بيبى » G. Bibby من الطراز الهندى القديم والاختام المكتشفة فى البحرين فى مجلة الدراسات القديمة ، العدد ٣٢، ص ٢٤٣ — ٢٤٦ · وانظر أيضا : و·ف· ليمانز « التجارة الخارجية فى الحقبة البابلية القديمة » ، ليدن ١٩٦٠ ·

هاما للنشاط والاتصال البحرى بين اقليمى الهاربان وما بين النهرين (١) .

ولعل هذا قد يوحى أيضا بأن الحضارة الهارابية قد بلغت أوج ازدهارها ونضجها على طول الشاطىء الممتد غربا حتى وادى دشت ، وأن مدينة سوتكاجن دور (٢) الواقعة فى وادى دشت ومدينة سوتكا كوه (٣) الواقعة فى وادى شادى كاور (٤) الى الشمال من اقليم باسنى قد لعبتا دورا هاما باعتبارهما ميناءين من الموانىء الهارابية (٥) ، بل أنه يمكن الذهاب الى أبعد من ذلك فنفترض أن أصحاب المشروعات التجارية الذين نشأوا بين أحضان حضارة كولى قد قاموا بدور الوسطاء لنشر تلك الحضارة بين اقليمى السند وما بين النهرين .

وقد اكتشف فى ميناء لوثال نوع خاص من الأختام يعرف بخاتم الخليج الفارسى العربى ، وهذا يختلف فى نموذجه عن خاتم السند الذى سبقت الاشارة اليه (٦) . ويحدثنا العلامة « برجزبوتشانان » عن خاتم يحمل تاريخا وبصمات تدل على ارتباط بابل بالهند القديمة (٧) .

وتشير سجلات ما بين النهرين الى أنواع معينة من السلع والمواد الخاصة التى كانت تستورد عادة من البلاد الأجنبية ، ويستدل منها على أن بعض تلك السلع والمواد قد جلبت من أقاليم الهاراپان . ومع ذلك فان مما يثير الاهتمام أنه لم يكن هناك أى أثر باق للمواد التى كان يستوردها الهارابيون ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا يستوردون سلعا دقيقة الصنع ناعمة الملمس ، قابلة للاستهلاك والاستعمال،

---

(١) قارن ماكتبه « س.ر. راو S.R. Rao» عن التجارة البحرية عند شعب السند فى المجلد ٧ صفحات ٣٠ — ٣٧ من مجلة البعثة العلمية ، وما كتبه هارتموت شموكل Hertmut Schmokel عن الطريق البحرى بين أور Ur ولوثال Lothal طريق التجارة البحرية بين بلاد ما بين النهرين القديمة ، والثقافة الهندية . مقال فى : البحوث والتقدم ص ٤٠ .

(٢) Sutkagen-dor

(٣) Sotka-koh

(٤) Shadi-Kaur

(٥) وهذا يوحى بأنه فى الوقت الذى احتلت فيه مجموعة الأجناس الآرية الهندية معظم شبه جزيرة الهند كانت شبه جزيرة جوجرات Gujarat آخر معقل لحضارة السند . راجع مقال ج.ف. داليز: الموانىء الهارابية على شاطىء المتكران ، فى مجلة الدراسات القديمة العدد ٣٦ ، ص ٨٦—٩٢

(٦) انظر س.ر.راو : « خاتم الخليج الفارسى من لوثال » فى مجلة الدراسات القديمة ، العدد ٣٧ ، صفحات ٩٦ — ٩٩ .

(٧) مجلة الاركيولوجى « علم الحفريات » العدد ٢٠ص ١٠٤ — ١٠٧ ، وانظر ايضا س.ج.جاد ، أختام الهند القديمة ، نموذج عثر عليه فى أور من مطبوعات الأكاديمية البريطانية عام ١٩٣٢ ، ص ١٩١ — ٢١٠ .

كالثياب والصوف والمنتجات الجلدية والزيوت العطرية . والواقع أن الترابط بين حضارة السند وحضارة مابين النهرين كان يعتمد أساسا على نشاط التبادل التجارى بينهما . ولا يمكن أن نتجاهل أن أفول التجارة الدولية لبلاد ما بين النهرين ، فى عصر لارسا ، يتوافق مع نهاية الحقبة المزدهرة من حضارة الهارابان .

وبالرجوع الى بقايا الهياكل العظيمة التى عثر عليها فى وادى السند يمكن الاستدلال على وجود نوع واحد من الجنس البشرى ينتمى الى كل من بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط .

وتشير سجلات ما بين النهرين الى عدد من الأماكن النائية يمكن أن يكون بعضها فى المواطن القديمة التى كانت فى وادى السند .

فمثلا يلاحظ أن نقوش ملوك آكاد وبعض النصوص المعجمية التى ترجع نشأتها وأصولها الى تلك الأمم تذكر كلمة ماجان Magan أو مكان Makkan ، ويرى العلماء الدارسون أن هذا اللفظ هو هو بعينه لفظ مكران Makran التى تقع فى بلوخستان وملوها Meluhha ، وهى المكان الذى كان يستورد منه البابليون العقيق وأنواعا خاصة من الخشب ، وينقلونها بطريق البحر ، ويقال أن هذه الكلمة أيضا هى هى الكلمة الدالة على ميناء لوثال وضواحيه .

ويرد كثيرا اسم « ديلمون Dilmun » فى انكتابات السومرية ، وقد حظى ديلمون بالتمجيد والتقديس فى أساطير السومريين . وقد وصف بأنه مشرق الشمس (أى أنه يقع الى الشرق) ، كما يوصف بالمكان المزدهر الآهل بالمساكن العظيمة الفاخرة .

ويميل العلامة صموئيل كرامر S. Kramer الى الاعتقاد بأن المكان الذى كان يطلق عليه اسم ديلمون هو هو اقليم السند .

والى ذلك فهو يشير الى مغزى تلك الصلة الوثيقة ، التى كانت تربط ربطا قويا بين الآله انكى Enk اله الماء ، وكان أعظم آلهة السومريين ، وبين ذلك المكان الذى كان يطلق عليه ديلمون ، وخاصة أن حضارة وادى السند كانت تتميز بعبادة اله الماء والسفن المقدسة التى كانت تخوض البحر (١) .

ويمكن الرجوع أيضا بهذا الصدد الى بعض الكلمات مثل : تايماطا Taimata أورجولا Urugule اليجى ــ فليجى Aligi - Viligi ، التى ورد ذكرها فى

---

(١) راجع مقال صموئيل نوح كرامر عن حضارة السند وديلمون ، جنة السومريين الضائعة ، فى مجلة البعثة العلمية ، المجلد ٦ ص ٤٤ ــ ٥٢ . وتعتقد بارپولا Parpola وآخرون أن تلمون أو ديلمون ، هى جزيرة البحرين . وانظر ايضا ما كتبه جاريتز فى جريدة دراسات الشرق الادنى ، المجلد ٢٧ (٣) ص ٢٠٩ ــ ٢١٣ عن تيلمون وماكان وميلوها .Tilmun, Makan, Meluhha

الأتارفافيدا المقدسة Atharvaveda . فمن الواضح ان هذه الكلمات ليست آرية ولكنها وجدت فى حضارة السند ، ويظهر أنها مشتقة من كلمات بلاد ما بين النهرين وهى كلمة « طياموت » Tiamut (الأفعوان) ، وكلمة أروجالا Uragala (العالم السفلى) ، وكلمة بلجى Bilgi (وهو اله أشورى قديم) .

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأنه برغم عدم امكان الحصول على ما يثبت أو يحقق — فى هذه المرحلة — طبيعة ومدى الاعتماد المتبادل بين السند والهند من جانب ، وبلاد ما بين النهرين التى كانت تعد جزءا من عالم البحر المتوسط من جانب آخر ، فسيظل حقيقة ثابتة ، يمكن البرهنة على صحتها بدون أدنى شك ، وجود صلات فعالة نشيطة بين هذين الاقليمين ، ما لبثت أن تطورت بينهما فى وقت مبكر ، أى فى بواكير سنة ٣٠٠٠ ق.م ، وظلت مستمرة فترة طويلة تقرب من ٨٠٠ عام .

ولا يمكن أن نستبعد أن يكون شعب السند قد أقام علاقات وصلات تجارية مع شعب كريت . وفى هذا الصدد يمكن الاشارة الى ذلك التناظر بين طقوس عبادة الآلهة « الأم » عند الهاربان وعند شعب كريت السورية . ولقد أميط اللثام أيضا عن شيوع تقديس نوع معين من اليمام والثعابين المرتبطة بعبادة الأشجار ، فى مدن موئنجوداو وهاربا ، هذا بالاضافة الى أن التباين والتنوع فى الخزف الهارابى المزخرف الذى كانت تزين به القلائد والعقود لا تشابه حباته تلك الحبات التى اكتشفت فى أور ، ولكنها تشابه تلك التى تم اكتشافها فى كريت .

واذا كان التدليل على وجود اتصالات بين الهند وبلاد ما بين النهرين يستمد أصوله من الحفريات والآثار فانه يمكن القول بأن الدليل على وجود الصلات بين الهند والأناضول يمكن أن يستمد من دراسة اللغويات ، وتجدر الاشارة فى هذا المقام الى أن العلاقات بين الهند والأناضول لم تكن علاقات مباشرة أو اتصالات مستمرة ، واحقاقا للحق لم يكن أى من الاقليمين على وعى أو شعور مطلق بوجود مثل هذه العلاقة .

وهناك اللوح الطينى الذى اكتشفه العلامة الأثرى هوجو وينكلر Hugo Winkler عام ١٩٠٦ فى مدينة بوجازكوى Bogazkoi (على بعد تسعين ميلا جنوبى غربى أنقرة) ، وربما كان الاسم القديم لهذا المكان هو هاتوصا حيث يقدم لنا هذا اللوح معاهدة ابرمت بين حاكم ميتانيا الذى كان يدعى ماتيوزا وهو ابن تصراطا وبين ملك الحيثيين الذى كان يدعى سوبلوليوما ، وذلك ابان القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وقد استنفر للشهادة على هذه المعاهدة أربعة آلهة من بين آلهة أخرى كثيرة ، وهذه الآلهة الأربعة تربطها صلة قرابة بآلهة الفيدا المعروفة بالأسماء المقدسة : ميترا ، mitra فارونا Varona ، أندرا Indra ، ناساتيا Nasatia

وقبل هذا الكشف بحوالى عشرين عاما ، أى فى سنة١٨٨٧ ، كان هناك كشف فى تل العمارنة بمصر الوسطى ، يتالف من عدد كبير من الألواح نقش عليهـــا كتابة بحروف مسمارية ، وهذه المجموعة تشكل جزءا من سجل قديم يحتوى على مراسلات امنيفوس الرابع (حوالى ١٣٦٤ ـ ١٣٤٧ ق٠م) ووالده الفرعونى امنيفوس الثالث (١٤٠٢ ـ ١٣٦٤ ق٠م) مع الدول الواقعة شرقا وخاصة سوريا وفلسطين وميتانيا الواقعة فى الأناضول الشرقية ، وكان حكامها تربطهم رابطة القرابة والمعاهدة مع الفراعنة ٠ وكانت أسماء الحكام الميتانيين التى ورد ذكرها فى هذه المراسلات مثل: أرتاما وأرتاسيمارا توضح لنا كذلك مظاهر القرابة اللغوية بينها وبين الأسماء فى اللغة الآرية ٠ وقبل ذلك بثلاثة أعوام أى حوالى ١٨٨٤ وجه العلامة فردريك ديلتش نظر الدارســين الى التأثير الآرى على لغة الـكاسيت الذين كانت لهم السيطرة على الجنوب الشرقى من مملـكة ميتانى الواقعة شـمال الخليج العربى ٠ ومن أمثلة ذلك أن الكلمة التى كانت تستخدم فى تلك اللغة للدلالة على اله الشمس هى « سرياس » وهى تقابل من حيث الشكل والمعنى الكلمة الفيدية سيريا ٠

وبالاضافة الى ذلك فان حفريات البعثــة العلمية لبعض علمــاء الآثار الذين أجروا تنقيبا فى بوجازكوى بين عام ١٩٠٦ وعام ١٩١٢ قد كشف النقاب عن مصنف يعالج كيفية تربية الخيل والجياد وتدريبها ، ويرجع تاريخ هذا المصنف الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ويعزى تأليف هذا المصنف الى أحد الـكيكوليين ويلقب بالاصاصانى ، ومن الواضح أن كلمة « الاصاصانى » مرتبطة بكلمة « أصفا » بمعنى « حصان » وكلمة « ســام » بمعنى « يروض » أو « يســتأنس » ٠ ويقــال أن هذا المؤلف جاء من بلاد ميتانى ٠ ويحتوى هذا المصنف على مجموعة من الارقام التى ترجع بدون شك الى اللغة السنسكريتية الأصـلية ٠ ومن أمثـلة هذه الأرقام : ايكا ، تيرا ، بانزا ، صطا ، الخ ٠ ولا شك أن هذه الأعداد من بقايا اللغة السنسكريتية٠ وتقابل : ايكا ، وترى ، وبانكا ، وسابتا الخ ٠ كما أن هذه الأرقام شكلت فى أول الأمر أول حروف وظيفية أدخلت فى التركيب اللغوى المصطلح يوارتانا الذى يتفق فى تركيبــه مع المصطلح الفيــدى « فارتانى » وحرفه الأخير(i) حول الى (e) أى على نحو ما يرى فى الكلمات الفيدية المركبة التى تنتهى بحروف تدل على الرقم مثل كلمــة داسانجولا التى تتالف من داسا بالاضافة الى كلمــة أنجولى ، ومثل كلمة تريانجالا التى تتالف من « ترى » بالاضافة الى « أنجالى » (١) ٠

وأخيرا فقــد عثر فى الفترة ما بين ١٩٢٥و١٩٣١ على وثائق هامة وجدت فى مدينة نيوزى التى تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من دولة ميتانى ، وتحتوى هــذه

(١) م٠ مايرهوفر : تركيب الكلمات العددية فى النصوص الكيكولية ٧٠ ، ١١ ـ ١٣

الوثائق أيضا على بعض الكلمات مثل: بابروتو ، بايرو، باريتانو (باليا)، بينكارانو، بنجالا ، وكلها تشير الى ألوان الجياد أو الخيل ٠

ولقد اشتقت هذه المـادة اللغوية الآرية من مصادر مختلفة ومتعددة ، ترتبط كلما بصفة مباشرة أو غير مبـاشرة بدولة ميتاني التى قامت فى الأناضول القـديمة ويرجع تاريخها بصفة عامة الى السنوات الألف الثانية قبل الميلاد ٠ ويمكن تصنيف هذه المادة اللغوية تحت ثلاثة مصنفات رئيسية (١) : (أ) أسماء آلهة الفيدا الأربعة٠ (ب) ثلاثة عشر لفظا يستخدم فى الدلالة على الألقاب ، بينهـا أربعة تدل على الأسماء المجردة ، وثلاثة أخرى تستخدم بمثابة صفات ، والخمسة الأخيرة كلمات عددية ، ومن بينها فعل واحد ٠ والملاحظ أن سبعة منهـا مستمدة من الأعمـال التى يشتغل بها الكيكوليون ، وثلاثة منها واردة من مدينة نيوزى، وثلاثة أخرى ترد فى سجلات الحرانيين ٠ (جـ) أما الصنف الثـالث من الـكلمات فيشتمل على عدد من الاســماء الشـخصية (٢) ٠ وفيمـا يتعلق بالطابع الآرى للفئتين الأوليين فليس هنـاك مجال للشك فى ذلك ، أما الفئة الثـالثة فانها تحتوى على كلمات يبـدو أنها تمثل بعض التغايرات المحلية التى طرأت على الاشـكال الآرية الاصلية ٠ ويمكن الاشارة بصدد هذه الفئـة الأخيرة الى أنه من الميسور الوقوف على مدى التـأثر والتأثير المتبادل بين لغة الكلام عند شـعوب الشرق الأدنى ولغـة الـكلام عند الشعوب الآرية ٠ وهذا التـأثير يمكن الوقوف عليـه عندما ندرس التطور الذى طرأ على أية ظاهرة ، كأن ندرس بصفة خاصة مثـلا التطور الذى طرأ على حروف اللغـة الهندأوربية من خلال دراسة تطور اللغـة الآرية (٣) أو من خلال ما طرأ على قواعد الفـاعل والمفعول فيما يختص بنهاية الكلمة بالحروف م ، ا (ما) عند اللويان عندما تستخدم الكلمة للدلالة على المفعول به كنظير لما يوجد فى اللغة السنسكريتية من أبنية لغوية على نحو مايبين فى بعض الكلمات السنسكريتية مثـل : كصاما ، واستيما ، وبهيمـا ، وداسما ، ونجما ، وأوما ، وما الى ذلك (٤) ، وما يظهر كذلك فى ما يقابلها من الكلمات الآرية

---

(١) لمناقشة هذا الموضوع بصورة موسعة يمكن الرجوع الى : ر. هاوشيلد حول اقدم العناصر الآرية فى الشرق القديم ٠ برلين عام ١٩٦٢ وم. مايرهوفر الاندو آريون فى آسيا الصغرى القديمة ، مع ببليوجرافيا تحليلية ، فيسبادن ١٩٦٦ ٠

(٢) ا. كامنهوبر : الآريون فى الشرق الأدنى ٠ هيدلبرج عام ١٩٦٨ ٠

(٣) قارن ماكتبه تزيمرينى O.Szemerenyi عن البنائية فى مقال عن الهندوراوبيين والساميين فى الشرق الأدنى ، مجلة لنجوا Lingua ، المجلد ١٣ ، ص ١ — ٢٩ ٠

(٤) صـوغ المفعول المطلق عنـد اللاويين فى جـوهان فردريك فيستشريفت ، عـام ١٩٥٩ ، ص ٥٣ — ٥٩ ٠

التى لها لواحق أو تنتهى بحروف حرانية مثل كلمات : موتونى ، وأصوصانى (١)٠
واذا ما دققنا النظر فى الخصائص اللغوية الدقيقة التى تتميز بها البقايا اللغوية
الآرية التى ظلت باقية فى الاناضول ، وحاولنا تفسيرها ، وجدنا أنفسنا أمام ثلاثة
واذا ما دققنا النظر فى الخصائص اللغوية الدقيقة التى تتميز بها البقايا اللغوية
لمرحلة ما قبل الآرية ، أو الصورة اللغوية الأولية لمرحلة الآرية الايرانية ٠ وقد
انتهت بنا الدراسة النقدية المقارنة والمحللة لكل هذه المادة العلمية — والتى لاحاجة
الى الخوض فيها بل قد يتعذر الدخول فى تفصيلاتها فى هذا المقام — الى أن اللغة
الأصلية التى يفترض أنها كانت الأصل لكل هذه النماذج اللغوية والتى تفرعت
عنها تلك الأشكال اللغوية المتعددة كانت أقرب ما تكون الى اللغة الفيدية
السنسكريتية ٠

وهنا تجمل الاشارة الى الآلهة الأربعة عند الفيديين الذين ورد ذكرهم فى المعاهدة
المعقودة بين مملكة ميتانى والحيثيين ، اذ أن ورود أسماء هؤلاء الآلهة فى
هذا المقام له دلالته الهامة ، وخاصة أنه قد تبين أن هؤلاء الآلهة الأربعة قد ورد
ذكرهم معا أيضا فى الرجفيدا Rgveda (١٠ — ١٢٥ — ١) وفى الأثرفافيدا
Atharvavéda (١١ — ٤ — ٤) ، وان كان ذكرهم فى الرجفيدا لم يكن دائما مقرونا
بالاحتفاء بهم باعتبارهم حماة للاتفاقيات والمعاهدات والعقود (٢) ٠

كيف يمكن تفسير ادخال ذلك العنصر الفيدى الآرى وادماجه فى التراث
الميتانى من الناحية التاريخية ! يبدو أنه بعد الفترة المظلمة التى عقبت سقوط بابل
فى حوالى عام ١٦٥٠ ق٠م اضطر الحرانيون الى الانتشار فى مساحة كبيرة من سوريا
وبلاد مابين النهرين ، وأسسوا فى ذلك الاقليم مملكة الميتانى ٠ وكان الحرانيون
شعبا يحب المغامرات ، فكان الآريون يقودونهم فى حروبهم ومغامراتهم ، ولذلك
كنا نجد الاشارة الى أنهم « أبطال فيدا » بالكلمة maria-nuu التى تعنى Vedicmarya
وكانوا — بالرغم من قلة عددهم نسبيا — يبرزون باعتبارهم حكاما أو نبلاء ٠
ويمكن الاستشهاد على صحة ذلك بالرجوع الى الوثائق والسجلات المتاحة
لنا ، حيث نجد أن خمسة أجيال أو ستة من حكام مملكة الميتانى يرجعون الى أصل
آرى فيدى ٠ ومن الضرورى أن نؤكد فى تلك المرحلة حقيقتين : أولاهما أن أسماء
الأمير الميتانى الذى ورد ذكره فى المعاهدة ، ونقشت أسماؤه وسجلت على اللوحة
التى عثر عليها فى بوجازكوى ، واسم والده ماتيوازا وتصراطا ، كل هذه الأسماء

(١) ماير هوفر « حول بعض الكلمات الآرية ذات اللواحق الحورية » ١ ، ص ١ — ١١

(٢) ب٠ ثيم : الآلهة الآريون فى معاهدات ميتانى، مجلة الدراسات الشرقية القديمة ، المجلد ٨٠
ص ٣٠١ — ٣١٧

لا يشك أحد فى أنها أسماء هندية آرية (١) • وثانى هذه الحقائق أنه كان يوجد الى جانب الآلهة الهندية الأربعة (المشار اليها آنفا) عدد كبير من الآلهة الأخرى ، ومن المحتمل أنها كانت آلهة حرانية ، وقد ورد ذكر هذه الآلهة فيما نقش على لوحة بوجازكى • وفى ضوء ذلك فانه ليس من الخطأ أن نفترض أن الآلهة الآرية الهندية كانت تنتمى الى آلهة العائلة الحاكمة الآرية الهندية ، وآلهة النبلاء الآريين الهنود ، فى حين أن الآلهة الأخرى كانت تنتمى الى آلهة أغلبية الشعب الحرانى • ولذلك فاننا نعتبر أن العلامة هرزفلد كانمحقا عندما افترض أن هذه الآلهةكانت آلهة جماعة من الضباط المرتزقة الآريين ، وآلهة جنودهم ، ممن كانوا قد أسهموا فى اقامة مملكة المتانى (٢) •

ويمكن أن أتصور المسار الكلى للتاريخ فيما يتعلق بهذا الموضوع بصفة عامة على النحو التالى (٣) •

من المعروف أن الموطن الأصلى للأقوام التى كانت تتكلم بلغة آى I E فى بدائيتها ولا ينتمون بالضرورة الى مجموعة سلالية واحدة ، كان هو بلاد الاستبس التى تقع شمال كرغيز بين جبال الأورال وآلتاى ، ويؤيد هذا ما يتوفر لدينا من الشواهد اللغوية والأركيولوجية والأنثروبولوجية والثقافية التاريخية التى تساند بقوة ذلك التصور • وتشير الحقائق الى أن دخول الطلائع الأولى من الهيليينيين الى بلاد اليونان يرجع الى ٢٢٠٠ سنة قبل الميلاد ، وأن الحيثيين ـ كما سنوضح فيما بعد ـ قد بدأوا هجرتهم الانفرادية منذ ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد ، وأن أسلاف الآريين قد انفصلوا عن مجموعتهم السلالية الأصلية منذ ٢٦٠٠ سنة ق٠م ، وعلى ضوء هذا يمكن القول بشىء من الاستدلال والاستنتاج المقبول والمعقول أن تاريخ تحقق الوحدة بين الجماعات المبكرة التى كانت تتكلم لغة « الآى » يمكن أن يرتد الى ٣٥٠٠ سنة ق٠م٠ ومن هذا يتضح لنا أن لغة الحيثيين كانت أول لغة تفرعت عن اللغة الأصلية للعائلة اللغوية التى يطلق عليها « آى » •

والحقيقة أن لغة الحيثيين تحوى ما يشير الى ما بينها وبين لغة آى الأصلية من لحمة قرابة وثيقة ، ولكن ليس من المستطاع أن نحدد الفرع اللغوى الخاص الذى

---

(١) ويمكن التعبير عن هذه الاسماء فى اللغة السنسكريتية الهندية, Tvesaratha Mathivaja

(٢) هرزفلد : ايران فى الشرق القديم عام ١٩٤١ ص ١٩٢

(٣) للحصول على معلومات أوفى فى هذا الموضوع يمكن الرجوع الى د٠ن٠ دانيكار فى بحثه عن الاسلاف والبدايات الأولى للحقبة الفيدية ضمن الابحاث التى قدمت فى المؤتمر العاشر لتاريخ الهند عام ١٩٤٧٠ ، ص ٢٤ ـ ١٩٥٥ حيث يمكن ملاحظة انى قد غيرت وجهة نظرى السابقة تغييرا طفيفا فيما يتعلق بهجرة الآريين الى الاناضول •

تنتمى اليه تلك اللغة ، وفى ضوء ذلك يمكننا أن نفترض أنه قد حدثت هجرة من جانب الحيثيين من الموطن الاصلى للجماعات التى كانت تتكلم باللغة الأصلية للآى ، وأنه ربما تكون هذه الهجرة الانعزالية قد تمت قبل أن تستكمل لغة الآى شكلها المحدد الخاص بها، فلقد اتجه الحيثيون صوب الجنوب الغربى واحتلوا الاقليم الواقع بين جبال القوقاز وبحر « القزوين » ، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث عام ٢٨٠٠ ق ٠ م ٠ ثم بعد مرور قرون قليلة ، تخللها الاغفال النسبى لهؤلاء الأقوام، بدأ يظهر ما عرف عن الحيثيين من أنهم قد اندفعوا من جديد فى اتجاه الجنوب الغربى من خلال أبواب أو مداخل سيليزيا ، وأنهم قد بسطوا سلطانهم على المرتفعات الواقعة على منحنى نهر هاليز ، ويبدو أنهم خلال انتشارهم قد بلغوا البحر المتوسط من ناحية الجنوب الغربى ، كما أنهم بسطوا نوعا من السيطرة على المملكة الميتانية الواقعة فى الجنوب الشرقى ٠ وفيما يتعلق بالحقيقة الأولى فقد سبق أن بينا أن الاتصال عن طريق البحر (١) لعب دورا هاما فى حياة شعوب المناطق التى كانت مغلقة على سكانها مثل الحيثيين ، ولذلك فاننا نجد فى كتاباتهم ما يشير الى تمجيد وتقديس البحر ، وأما فيما يتعلق بالواقعة الأخيرة فانه يمكن أن نتبين أنه بالرغم من طول فترة التقارب بين الحيثيين والحرانيين لم يحدث بينهما أى نوع من الاتصالات الثقافية أو السياسية التى تحمل دلالة معينة حتى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهو التاريخ الذى عقدت فيه الاتفاقية التى سجلت على ذلك اللوح الطينى الذى عثر عليه فى بوجازكوى ، تلك الاتفاقية التى تميزت بالتحالف السياسى بين الملك ماتيوازا ملك ميتانى والملك سوبيليليما ملك الحيثيين ٠

ولكن علينا أن لا نذهب أبعد من ذلك ، ولنتريث قليلا ، ونعود الى الحديث عن هجرات الشعوب التى كانت تتكلم بلغة آى الأصلية ، فنلاحظ أن الشعوب التى ظلت تتكلم تلك اللغة حتى بعد الهجرة الانعزالية الانفرادية التى قام بها الحيثيون، فى المرحلة التى عاصرت تطور اللغة الأصلية للغة آى ، استمروا يعيشون بعض الوقت فى شمال اقليم كيرغيز ، ولذلك يشار الى تلك الأقوام بأنها الشعوب التى تتكلم لغة آى ٠

وثمة تطور آخر يميز تاريخ تلك الشعوب ، ويتجسد هذا التطور فى الهجرتين الرئيسيتين لتلك الأقوام : اتجهت الهجرة الأساسية الأولى صوب الجنوب الشرقى: فبعض القبائل التى تنطق بلسان الآى ، قد انفصلت عن أصولها الرئيسية وهاجرت الى مكان لا يختلف كثيرا عن منبتهم الأصلى المعروف باسم أورهيمات ، أعنى ذلك الاقليم الذى يحيط ببلخ ٠ أما الهجرة الرئيسية الثانية فكانت فى اتجاه

---

(١) تستخدم كلمة arunna. عند الحيثيين للدلالة على البحر وربما تقابل arnava arnas,

اقليم بريبت ، وقد خرجت منه بعد ذلك هجرات أخرى فرعية ، وكان من بينها الهجرات التى اتجهت صوب عالم بحر ايجه وايطاليا والأراضى الجرمانية ٠

ومهما يكن من شأن فانه يعنينا فى هذا المقام تلك القبائل التى هاجرت واستقرت فى اقليم بلخ ، وهنا نجد أنه فى الفترة الواقعة بين عام ٢٥٠٠ ق٠م٠ وعام ٢٣٠٠ق٠م٠ انبعثت اللغة الأردية من لغة آى من جانب ، ومن جانب آخر فان هذه اللغة غدت الأصل الذى تفرعت منه اللغة الايرانية القديمة ٠ ولغة الفيدا واللغة السنسكريتية ، وفى هذه الفترة استكملت بعض اللغات خصائصها المميزة ، فتحددت ملامح وخصائص اللغة السابقة للعقيدة الدينية الآرية التى تمثل بدورها المرحلة السابقة على العقيدة الدينية التى وردت فى الأمشتا والفيدا المقدسة ٠

أما عن اقليم « بريبت » فقد حدثت عبر الزمن هجرات فرعية من ذلك الاقليم، كما حدثت كذلك من اقليم بلخ٠ وكان أولى تلك الهجرات تلك التى هاجر فيها أسلاف الشعوب الآرية الهندية ، متجهين نحو أرض الأنهار السبعة الواقعة الى الجنوب الشرقى ٠ ومن المحتمل أن تكون هجرة الايرانيين القدماء نحو الغرب قد حدثت بعد ذلك بفترة طويلة ٠ وثمة مبرر للاعتقاد بأن الجماعات الهندية الآرية قد تطورت لغتها وعقيدتها الدينية الهندية تدريجا ٠ وقد تم هذا وهم يشقون طريقهم نحو الهند٠ وقد حدث أثناء زحفهم تحت قيادة « فرتراها اندرا أن بعض المغامرين منهم – بدلا من أن يواصلوا المسير مع رفاقهم صوب سابتازندهو – ولوا وجوههم واستداروا الى الخلف وانطلقوا فى طريق وعر وخطر نحو الشمال الغربى ، ويمكن الجزم على وجه التحديد بأن أحفاد هؤلاء المهاجرين لعدة أجيال هم الذين وصلوا الحزام الأوسط من الهلال الخصيب ، وأقاموا بين ظهرانى الحرانيين المحليين الذين كانوا يسكنون هذه المنطقة وفرضوا أنفسهم عليهم كحكام لهم ، ثم تم لهم بعد ذلك تأسيس مملكة ميتانى التى خضعت لسلطانهم (١) ، ومعنى هذا أن ملوك ميتانى لم يكونوا من أسلاف الهنود الآريين ، وبتعبير أدق لم يكونوا من الهنود الآريين الذين هاجروا من الهند الى شرق الأناضول ، ومهما يكن من شأن فان أسلافهم كانوا ينتسبون الى أسلاف الهنود الآريين باعتبار أنهم جميعا يرتبطون ارتباطا وثيقا من خلال تآخيهم فى اللغة والدين٠ ولكنهم كانوا قد انفصلوا عن هذه الرابطة القوية حتى قبل أن يقدر لأسلاف الهنود الآريين الدخول الى الهند، ويؤلفون جماعات يطلق عليها بحق الهنود الآريون٠ هذا بينما دخل أحد فروع الأصول الهندية الآرية أقليم سابتازندو فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، ومن ثم نجحوا فى ارساء دعائم الدين والثقافة الشعبية ، وأما الفرع الآخر من هذه

(١) بالرغم من ان السائد أن يشار الى مملكة ميتانى على انها تقع فى الاناضول الشرقية الا أن هذه المملكة تطابق من وجهة النظر الجغرافية الجزء الاكبر من بلاد ما بين النهرين ٠

الأصول الهندية الآرية فقد كتب له أن يظهر بعد بضعة أجيال فى آسيا الصغرى(١)، فى صورة جماعة من الجنود والمحاربين المرتزقة الذين أسسوا مملكة الميتانى فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ٠ وبذلك فقد شاء قدر هذين الفرعين المنحدرين من الأصول الهندية الآرية أن يتميز مصير كل منهما عن الآخر ، فأسلاف الهنود الآريين الذين هاجروا الى شمال غرب الهند كانوا قليلى العدد نسبيا ، ولكن كانوا يملكون مقدرة هائلة على نشر لغتهم وثقافتهم الى حد بعيد والى درجة أنهم بدلا من أن يذوبوا وينصهروا فى السكان المحليين الأصليين استطاعوا أن يفرضوا لغتهم وثقافتهم الخاصة على هؤلاء السكان ، وسرعان ما أصبحت اللغة والثقافة الفيدية متأصلة وعميقة الجذور فى الأرض الهندية ٠

وعلى عكس ذلك كان الأمر بالنسبة لأسلاف الهنود الآريين الذين استداروا وانعطفوا صوب الشرق الأدنى ، فانه يبدو أنهم قد فقدوا الكثير من خصائص لغتهم وسمات عقيدتهم الدينية خلال تقدمهم فى هذا المنعطف ، ولذلك فانهم لم يستطيعوا أن يؤثروا فى لغة وديانة الشعب الحرانى وهو الشعب الأصيل فى تلك المنطقة الا تأثيرا سطحيا ، ويرجع ذلك أيضا الى أن جل جهدهم كان منصرفا الى أن يقيموا من أنفسهم طبقة حاكمة متسلطة على الشعب ، فكان شأنهم على خلاف ما كان عليه الأمر بالنسبة لأقرانهم واخوانهم الآخرين ، اذ ما لبثوا أن اختفوا من مسرح الحياة وتواروا ثقافيا وسياسيا من سجل التاريخ فى أقل من مئتى عام ٠ وفى ضوء هذه الفرضية الآنفة الذكر ، وفى اطارها فقط ، يمكن أن نضع فى الاعتبار ما ورد فى الوثائق خاصا بالعناصر والجماعات الآرية التى ضلت طريقها وصعب الاهتداء الى مصيرها والتى تضمنتها مواثيق وسجلات مملكة ميتانى وحلفائها والتى ترجع الى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ٠

هذا ولقد كان من بين أوجه الاتصال الهامة بين الهند والبحر المتوسط ذلك الذى حدث بين الهنود والفينيقيين ، غير أن قلة الشواهد الأثرية والدلائل اللغوية والسجلات التاريخية المتاحة تشكل عقبة أمام محاولة التحدث عن هذه الاتصالات حديثا دقيقا وملائما٠ ومع ذلك يمكن أن ننطلق من ذلك الافتراض المتواتر غالباوالذى يزعم أن جماعة البانيس panis الذين ورد ذكرهم فى الرفيدا Raveda من بين التجار الفينيقيين ٠ ولاشك أن جماعة البانيس وصفت فى الرفيدا بأنها كانت تتألف من تجار أغنياء ومرابين ، ولكن الرفيدا لم تشر اليهم باعتبارهم جماعات عابرة طريق وغير مستقرة جاءت بهدف التجارةوالمنفعةفقط ، اذ يبدو أنهم استقروا واستوطنوا الهند لفترة ما ، وفى خلال فترة استيطانهم نشبت بينهم وبين الفيديين الآريين اصطدامات وخلافات وعداوات وظلت علاقتهم عدائية لفترة طويلة مما يدحض الزعم بأنهم كانوا من الفينيقيين ، ويبدو أن البانيس كانوا على صلة ما بجماعات

(١) أنظر ما ورد فى تقارير المؤتمر الثانى عشر من تاريخ الهند المعقود عام ١٩٥٦ ٠

الديفودازا Divodacsa كما أنهم كانوا مرتبطين ارتباطا خاصا بنهر ساراسفاتى Sarasvati فضلا عن انتسابهم الى عائلة بهارادفا Bharadvas ، ثم هناك تلك الأسطورة الدينية التى تصور ساراما بأنه هو الذى اكتشف المكان الذى ابقوا فيه البانيس قطيع الآرين الفيدين طوال وقوعهم فى الأسر ، وكل هذا وما اليه لا يؤيد ما ينسب الى الفينيقيين من صفات عرفت عنهم من خلال دراسة تاريخهم • فلقد كان الفينيقيون مشهورين طوال العصور القديمة بأصالتهم فى بسالتهم البحرية ، وتلك صفات قلما تلتصق بجماعات البانيس اذا راجعنا ما ورد عنهم فى الرفيدا (١) •

والواقع أن اقليم سوريا وفلسطين لم تبدأ أهميته فى الظهور الا فى أعقاب نهاية الحضارة البابلية القديمة ، وكان ذلك نتيجة لازمة لصراع كان قائما بين مصر من جانب ومملكة الميتانى ومملكة الحيثيين من جانب آخر ، ولذلك تمتع الفينيقيون الذين استوطنوا المنطقة الممتدة من لبنان شمالا الى فلسطين جنوبا بفترة استقلال ذاتى • وترجع شواهد الاتصالات التجارية بين الفينيقيين وسكان الهند الغربية الى حوالى سنة ٩٧٥ ق•م• فقط ، ففى ذلك العام أرسل حيرام ملك طرواده أسطوله البحرى المعروف باسم سفن طرشيش من ميناء اجيون جيبر الواقع على رأس خليج العقبة من البحر الأحمر بحثا وراء « العاج والقردة والطواويس » من ميناء أوفير (الذى يقال عنه أنه يطلق عليه سوبارا) وذلك لكى يزين بها قصوره ومعبد هيكل الملك سليمان (٢) • ولكن يبدو أنه لم يصاحب تلك الاتصالات التجارية بين الهند وفينيقيا أوجه اتصال أخرى حضارية أو ثقافية •

وعلى أية حال فان هذا النوع من الاتصالات قد حدث بالفعل ولكن بأسلوب متميز وبنظام معكوس فى حالة تلك الاتصالات التى تمت بين اليونانيين والهنود • وهنا يجدر بنا أن نوضح منذ البداية أن كلا من الهنود والاغريق يتنميان الى عائلة لغوية واحدة ترتد الى فرع لغة آى ، وبذلك فانهما يرتبطان الى حد ما بأوثق الروابط الاتصالية ، ومع ذلك فانهما عندما التقيا معا بعد عدة قرون شعر كل منهما بأنه غريب عن صاحبه ، ففى القرن السادس قبل الميلاد كانت فارس هى حلقة الاتصال بين الأغريق والهنود ، كما أنه من المعروف أن الجيوش الهندية قد عملت تحت أمرة الفرس عند غزوهم للممتلكات الاغريقية ، هذا فى حين عرف أن الضباط والمرتزقة من الأغريق قد التحقوا كموظفين فى المناصب الادارية الفارسية التى اقامها الفرس فى بلاد الهند •

---

(١) أنظر : ا•س• ارتكار A.S. Artckar فى المقالات التى نشرت عن المؤتمر الثانى والعشرين عن تاريخ الهند عام ١٩٥٩ ، ص ٢٠ حيث يميل ارتكار الى الزعم بأن البانيس كانوا هم الهاربان أو كانوا يمثلون شريحة منهم •

(٢) انظر راولنسون H. G. Rawlinson الهند فى أدب وفكر الأوروبيين ضمن تراث الهند اكسفورد عام ١٩٦٢ ، ص ١ •

فمن المأثور مثلا أنه عندما تقدم داريوس مسافة بعيدة حتى بلغ ينابيع مياه نهر السند فى عام ٥١٠ ق٠م ، أرسل بحارا أغريقيا يدعى سكايلاكس وطلب منه أن يبحر حتى مصب نهر السند ، على أن يتخذ طريقه عند عودته الى وطنه عن طريق البحر الأحمر ٠ ولقد سلك سكايلاكس الطريق القديمة التى كان يسلكها التجار الفينيقيون حتى وصل الى أرسينو (ويقال أن هذا هو الاسم القديم لمدينة السويس الحديثة) بعد رحلة استغرقت عامين ونصفا ٠ ومن المسلم به أن المؤرخ هيرودوت (المولود فى عام ٤٨٤ ق٠م) قد اعتمد فى كل ماكتبه أو قاله عن الهند على هذا البحار الاغريقي سكايلاكس ، كما أظهر بانيني Panini الذى عاش خلال القرنين الخامس والسادس ق٠م ، معرفة وتعارفا بأخبار اليافاناس Yavanas وهم الاغريق الايونيون ٠ ويجدر الاشارة فى هذا الصدد الى أن الفكر والثقافة الهيلينية الخالصة قد نشأت وتأصلت وتطورت فى مدينة أيونيا الواقعة فى غرب الاناضول ، أكثر من تأصلها وتطورها فى شبه الجزيرة اليونانية ٠ ومما يدعو الى الدهشة حقا أن الهنود رغم أنهم كانوا وثيقى الاتصال باليونانيين الأيونيين ، ورغم تميز الهنود بالحس اللغوى المرهف ، فانهم لم يلاحظوا ما هنالك من تشابه بين لغتهم ولغة اليافاناس Yavanas (اليونانيين الأيونيين) ٠

هذا وهناك عالم يونانى آخر كتب كتابا عن الهند وهو المؤرخ الاغريقي الذى يدعى كتسياس ، وهذا المفكر كان قد عاش مدة طويلة فى بلاط امبراطور فارس فى عاصمة سوسا ، غير أن كتاباته عن الهند كانت تميل الى النزعة الرومانسية أكثر من الواقعية ٠

ويبدو أن الفكر انتقل من الشرق الى الغرب قبل زمن الاسكندر المقدونى ، وآية ذلك أن المفكر الاغريقي كاليس ، الذى عاش خلال القرن السادس ق٠م والذى كان ابا الفلسفة الاغريقية ، كان ينتمى الى ميلتيوس Miltcyus التى تقع فى أيونيا، هذا الفيلسوف قد استطاع أن يضع ويصوغ أساسا فيزيقيا طبيعيا لأصل الوجود مؤداه أن الماء هو المادة الأصلية الرئيسية التى يخرج منها كل ما عداها ، ويتألف منها كل ما فى الوجود ، فهى أصل الوجود ٠ وقد كان هدف المدرسة الفلسفية الايليه أن تكشف الحقيقة الوحيدة التى تكمن وراء جميع الظواهر المادية الحسية ، كما أن الحركة الأورفية كانت تسعى الى اشاعة فكرة أن الروح خالدة ، وأنها تتميز تماما عن الجسد ، وأنها تسعى دائما للخلاص والتحرر من البدن ٠

وقد قامت فلسفة هيراقليطس (٥٤٠ ـ ٤٧٥ ق٠م) على اعتقاده بأن الوجود فى تغير دائم ، وأن الحياة متغيرة دواما ، وأن العالم فى تدفق تام كتدفق موج البحر ٠ واعتقد ديموقريطس (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق٠م) أن الحقيقة تكمن فى الحركة الميكانيكية للذرات ٠ الواقع أنه ليس لدينا من الأدلة المتاحة الدامغة ما قد يساعدنا على الجزم بأن الفكر الفلسفى الهندى قد مارس نوعا من التأثير على هذه التأملات الفلسفية الأيونية وغيرها من الفلسفة الاغريقية، ولكن أمامنا حقائق معينة، منها أن هذه التأملات

الفلسفية وما يرتبط بهـا من نظريات كانت معروفة فى الهند ، كمـا أن معظم هذه التأملات الفلسفية قد ظهرت أول ما ظهرت عنـد اليونانيين الأيونيين (اليافاناس) وأن هؤلاء كانت تربطهم اتصـالات ثقـافية بالفرس ، ومن خلال اتصـالهم بالفرس اتصلوا بالهند ٠

واستـنادا الى ما أورده يامبلـكوس Iamblicus عن تاريخ حيـاة الفيلسوف فيثاغورس (المولود عام ٥٨٠ ق٠م) نتبين أن فيثاغورس قد درس تعاليم البراهمة وأساليبهم ، كما كانت هنـاك لقاءات تقليدية تقـام فى أثينا بين سـقراط وبعض البراهمة الحـكماء ، مما قد ينهض دليلا على احتمال وجود تأثير للفـكر الهندى على التأملات الفلسفية الاغريقية ٠

ولقد ساعدت حملات الاسكندر المقدونى المتكررة الى الشرق على توثيق الصلات المباشرة بين اليونانيين والهنود ، وجعلها أقوى مما كانت عليه من قبل ، ومن المؤكد أن الاسكندر كان على وعى بهذه الصلات ، خاصة أنه تلقى تعليمه على يد الفيلسوف أرسطو ٠ وقد بدأ زحفه المظفر فى عام ٣٣٤ ق٠م ، وكان نتيجة هذا الزحف هزيمة وغزو آسيا الصغرى، وسوريا، وفلسطين، ومصر ، حيث أنشأ بها ثغر الاسكندرية، ثم اتجه شرقا ، فزحف الى الهلال الخصيب وهزم القوات التى كان يقودها داريوس الثالث فى معركة « أربيلا » فى عام ٣٣١ ق٠م٠ ثم وصل الى البنجاب (فى الهند) بعد ذلك بخمس سنوات ٠ ولم يكن الاسكندر مجرد فاتح قاهر مظفر، وانما كان يعد الى جانب ذلك مكتشفا ، فلقد صحب معه نخبة من المؤرخين والعلمـاء والفلاسفة من ذوى الخبرة والدراية٠ ويعتبر الاسكندر فى واقع الأمر رائدا من رواد الحركة الهيلينسية Hellenistic (وهى الحـركة التى كانـت تنـاهض الحركة الهيلينيـة) والتى كان من أهدافهـا عدم قصر الثقـافة الهيلينيـة على الاغريق وحدهم ، وتنـادى بضرورة نشر الثقـافة الاغريقيـة بين غير اليونانيين أى خارج حدود بلاد اليـونان ٠ وكان الاسكندر يأمل فى أن يتحقق الالتقاء والتزاوج بين حضارتى كل من أوربا وآسيا، وان كان هذا الحلم لم يفصح عنه بصورة واقعية مادية ، ولكنه كان يبدو فى سياق محاولاته لتحقيقه٠ وفى هذا الصدد يجدر بنا أن نذكر أنه قد حدث بالفعل أن انتقل مركز الثقـل للثقافة الاغريقية من بلاد اليونان الى آسـيا وتحولت الاسكندرية الى مدينة كبيرة وقلعة لهذه الثقافة ، وغدت مركزا هاما للأنشطة التجارية والاكاديمية٠ ولقد أدت انتصارات الاسكندر وفتوحاته الى ظهور حركة جديدة للتوسع الاستعمارى فى دول الشرق ٠ وقد صاحب ذلك تأسيس عدد من المدن الجديدة ، كما انبثق عن ذلك نشأة دول مستعمرة تحكم بامرة حكام من الاغريق، وتخضع لتوجيه مستشارين يونانيين ، وكان نتيجة لازمة لتلك الفتوحات أن انتشرت الثقـافة الاغريقية فى تلك المستعمرات ٠ على أنه ينبغى أن نلاحـظ فى هذا الصـدد أن السـواد الأعظم من الشعوب التى فرض عليها الحكم الاغريقى لم يتأثر تأثرا كبيرا بالحضـارة الهيلنية

الى الحد الذى يمكن معه اعتبار تلك الشعوب ضالعة أو مصطبغة بالصبغة الاغريقية والحضارة الهيلينية .

ولقد أثبتت الوقائع التاريخية أن فتوحات الاسكندر فى شبه القارة الهندية كانت قصيرة الأجل الى درجة أنها كثيرا ما أغفلت ولم تذكر الا نادرا فى مصادر التراث المعاصر . ولكن رغم ذلك فان أثرها العام كان واضحا ، ولا يمكن تجاهله ، وربما يرجع ذلك الى عامل فذ ، ولا يستبعد أن يكون مرد ذلك الى السياسة التى كان يتبعها الملك « كاوطيليا Kautilya » ، وافراطه فى حب السلطة الملكية المطلقة، وتركيزه على الادارة البيروقراطية والرقابة المركزية ، وما الى ذلك من الأمور التى لم تكن تتناسب مع نظام الهند التقليدى ، وكل ذلك كان بطبيعة الحال نتيجة لتأثير نظام الحكم الهيلينى الاغريقى ، الذى يبدو أنه قد وقف عليه ذلك الرجل الحكيم والسياسى الحصيف والادارى القدير من خلال تأثره بالثقافة والمعطيات الهيلينية .

وفضلا عما سبق فانه يمكن أن نقرر أن دخول « الحديد » الى الهند يرجع الفضل فيه الى تلك الاتصالات التى كانت قائمة بين كل من الفرس والأغريق بالهند فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد (١) ، فمن المتواتر أن الهنود عرفوا الحديد فى تلك الفترة .

هذا وقد أدت هذه الاتصالات أيضا الى ظهور بعض مواطن حضرية نتيجة لما طرأ على الهند من موجة التحضير الثانية (٢) ، ويرجع الى ذلك أيضا نشأة بعض المدن وفى مقدمتها مدينة تشارسادا Charsada ، ومدينة تاكسيلا Taxila ويزعم بعض العلماء أن بناة النصب المقامة فى جنوب الهند ينتسبون الى شعبة سلالية من شعوب البحر المتوسط ، ومن المحتمل أن تكون تلك العائلة البشرية قد جاءت الى الشاطىء الغربى من شبه جزيرة الهند ، بطريق البحر ، ويبدو أنهم دخلوا الى جنوب الهند فى حوالى عام ٥٠٠ ق.م ، ومن ثم آتجهوا صوب الشمال (٣) حيث انتشروا هنا فى تلك المنطقة . ولقد شهدت التجارة بين الهند والعالم الهيلنسى (البلاد التى انتشرت فيها الثقافة الاغريقية خارج حدود اليونان) دفعة كبيرة وتقدما ملحوظا ورواجا عظيما . ولقد كانت هناك عدة طرق للتجارة ، وكان فى مقدمتها من

---

(١) مارتيمر هويلر : بواكير الهند وباكستان ص ٢٤ و ١٧١ .

(٢) يعبر من ذلك «Second Urbanisation» انظر هـ.د. سانكاليا : اركيولوجية الهند ١٢٤ حيث يذكر أن موجة التحضر الأولى ترجع الى تأثيرات الاتصالات التى كانت قائمة بين الهند وبلاد ما بين النهرين التى سبق ذكرها آنفا .

(٣) هذه وجهة نظر العلامة النمساوى فون فورد هايمندورف C. Von Furer - Haimendorf

حيث الألفة والأهمية طريقان : أولهما الطريق البحرى الذى يصل بين مدينة باطاليبوترا pataliputra وتاكسيلا ثم باكترا Bactra (وهى عاصمة باكتريا) ثم يتجه غربا صوب الجنوب ، عبر الامتداد الطويل لحدود فارس وأراضى مدين حتى يصل الى سلوكيا ، ثم يتجه بعد ذلك اما شمالا الى الفرات ثم انطاكية أو يتجه صوب أوديسا حتى ينتهى الى البحر الأبيض المتوسط · أما الطريق الثانى فهو طريق بحرى ويبدأ من الشاطىء الغربى لشبه جزيرة الهند ، متجها الى الموانىء الواقعة على الخليج العربى ، ومنها يتجه الى حوض دجلة ثم ينتهى فى سلوكيا ومنها يأخذ أحد الاتجاهين اللذين سبق ذكرهما · ومما يروى بهذا الصدد أنه كثيرا ما يشاهد المرء عددا كبيرا من التجار الهنود منتشرين فى شوارع الاسكندرية ، ويضيف المؤرخ اليونانى « سترابو » ما كان يروى له من أن ما يقرب من مئة وعشرين قاربا كانت تبحر كل عام الى الهند من الموانىء المصرية ·

وبعد وفاة الاسكندر فى بابل عام ٣٢٣ ق·م ، تجزأت امبراطوريته الشاسعة الى أربعة أجزاء ، أصبح كل منها دولة مستقلة ، هى : الامبراطورية البطلمية فى مصر ، والامبراطورية السلوقية فى سوريا وفارس ، وامبراطورية انتيجون فى مقدونيا واليونان ، وأخيرا تلك الممالك التى كانت تضم الاغريق الشرقيين والبكتريانيين الواقعة الى الشمال الغربى من شبه جزيرة الهند · ومما يذكر بهذا الصدد أن سليقوز نيكاتور Seleucos Nekator ، عاهل الامبراطورية اليونانية الفارسية السورية ، قد حاول أن يحذو حذو الاسكندر فى غزواته وفتوحاته ، فشن حربا على باطاليبوترا ، غير أنه أصيب بهزيمة نكراء على يد « كاندراجوبتا موريا Candragupta Maurya (الذى عاش بين عام ٣٢٢ وعام ٢٩٨ ق · م) وانتهى الصراع بينهما بعقد معاهدة ، وبمقتضى هذه المعاهدة عين سليقوز سفيرا له فى بلاط باطاليبوترا ، وكان هذا السفير يدعى ميجاستينز Megasthenes ، هذا وقد استمر الاتصال الثقافى بين موريا Maurya والممالك السلوقية حتى بعد أن توفى الامبراطور كاندراجوبتا موريا ، ومن أطرف ما يحكى بهذا الصدد ما يروى عن بندسارا خليفة الامبراطور كاندراجوبتا من أنه كتب الى من كان يعاصره من أباطرة سوريا ، وكان فى ذلك الوقت يدعى انتيوخوس الأول ، يسأله أن يرسل اليه عينة من النبيذ اليونانى ، والزبيب الاغريقى ، وأن يبعث اليه بأحد الحكماء من الفلاسفة ، لكى يعلمه أصول الحوار والجدل والمناقشة ، فما كان من انتيوخوس الا أن يبدى سروره البالغ بأن يرسل اليه النبيذ والزبيب، أما عن الفيلسوف الحكيم فقد رفض هذا الطلب قائلا له بأنه ليس من الخير عند الأغريق أن يتاجروا بحكمائهم وفلاسفتهم ·

هذا وبعد أن غير أسوكا (٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق·م) ديانته واعتنق الديانة البوذية، بعث بارساليات الى الامبراطور انتيخوس والى أربعة ملوك آخرين من الأغريق ،

وهم على وجه التحديد : بطليموس فيلادلفيوس ملك مصر ، وانتيجونس جوناتاس ملك مقدونيا ، وماجاسى ملك سرنيا ، والاسكندر ملك ابيروس (١) ، وكان يهدف من وراء ذلك أن يجد منهم التأييد للقانون الذى دعى الى اقراره ألا وهو قانون احترام حقوق الآدمى وتحقيق السلام العالمى، ومما هو جدير بالذكر أنه تطبيقا لهذا القانون فقد اقتضى النظام الادارى فى موريا Maurya تشكيل مجلس خاص يتولى رعاية الأجانب المقيمين فى الهند (٢) ·

ولقد انقطع الاتصال المباشر بين الهند والاغريق بعد وفاة أسوكا عام٢٣٢ق·م، ولكن استمر التأثير المتبادل بينهما عن طريق الاتصال بين الهنود والبكتاريين من جانب ، والى حد ما عن طريق الاتصال بين الهنود والرومان من جانب آخر ، وكانت روما قد لعبت دورا فى شؤون الدول التى انتشرت فيها الثقافة الهيلينية ابتداء من عام ٢١٢ ق·م ، ولكن الحضارة الأغريقية الرومانية ، التى تميزت بتمثيل العناصر الثقافية الهيلينسية والحفاظ على الثقافة الهيلينية الرائجة فى دول الشرق ، قد بلغت أوجها فى الفترة التى تبدأ بحكم الامبراطور أغسطس عام ٣٠ ق·م الى عهد ماركوس أورليوز عام١٧٠ ميلادية· وهذه الفترة توصف بأنها عهد السلام الرومانى وخلال هذا العصر أصبح اقليم « جاندهارا » المركز الرئيسى للاتصال ، حيث كانت الثقافتان الهندية والأغريقية الرومانية تلتقيان وجها لوجه وكثيرا ما كانتا تندمجان · وربما كانت التجارة أعظم قنطرة وأهم حلقة ضرورية للاتصال الثقافى · وربما كان ازدهار كوصانا معتمدا الى حد بعيد على التجارة الخارجية ، وليس من المستبعد أن يكون أهم دافع من وراء احتلال الكوصانيين ووجودهم فى اقليم شن تو (وهو الاقليم السفلى من السند) هو السعى وراء الكسب والاثراء الوفير عن طريق التجارة الهندية الرومانية المزدهرة(٣)، خاصة أن التجارة الاغريقية الرومانية بلغت أوجها مع دول الشرق خلال حكم الكوصانيين · ومما يروى بهذا الصدد أن أحد قباطنة البحر كان قادما من الاسكندرية فى زيارة للهند ، وقد سجل هذا القبطان فى تقرير له أن التوابل والحرير قد شحنت من الموانىء الهندية ، لكى

---

(١) يفهم هذا مما ذكر فى الروك اديكت الثالث عشر ويمكن قراءة الاسماء كما هى مدونة هكذا : امتيوجا ، تلامايا ، امتكينا ، ماكا ، اليكياسودالا Amtiyoga, Tulamaya, Amtekina, Maka, Alikyasudala, Ptolmey. Philadelphus of Egypt. Antigonus Gonatas of Macedonia, Magas de Cyrene, Alexander of Epirus.,

(٢) بيلا لاهيرى *Bela Lahiri* فى مقاله عن تاثير التجارة الخارجية على النقود فى الهند القديمة QRHS, 5, 194

(٣) انظر مقالا للعلامة ب·ب، ماكهيرجى B.N. Mukherjee بعنوان أثر التجارة الخارجية على التاريخ السياسى Impact of Foreign Trade on Political History An Illustration, QRHS., 5, 183.

تستبدل بها عملات ذهبية رومانية ، وخمور أغريقية ، وفتيات يخترن جوارى للحريم الملكى . كما احتوت « الميلندابانا » (١) (فى القرن الأول الميلادى) على كثير من المصادر التى يستفاد منها وجود تجارة بحرية نشيطة بين الهند والاسكندرية .

هذا وقد طرأ تطور على المدينتين العظيمتين فى أقليم جاندهارا ، وأعنى بهما مدينتى بجرام وتاكسيلا ، فتحولتا الى مركزين هامين للتجارة على الطريق الموصل بين بلخ وجاندهارا . ومما يذكر أنه قد عثر فى مدينة بجرام على أطلال قصر (ربما يعود الى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد) ، وقد وجد فى حجرتين من حجراته الكثير من الأوانى الشرقية والعديد من مخلفات منتجات وصناعات دول البحر الابيض المتوسط كالأوعية الزجاجية السورية والمصرية ومنها العاج الهندى ، والأوانى البرونزية ، وعثر فيها أيضا على موازين بعضها على هيئة تمثال نصفى للالهة منيرفا وللاله مارس ، كما احتوت الحجرتان على مجموعة من الفنون الرومانية التى تصور مشاهير الشخصيات أمثال هربوقراط Harpocrates ، وهراقليس Hercules (هرقل) كما يبدو الفن الاسكندرى فى بعض الصور التى ترمز الى مثالية الفيلسوف (٢) . ويرى العلامة مورتمرهويلر Mortimer Wheeler أن وجود تلك الأشياء بهذه الكثرة يمكن أن يستدل منه على أن القصر كان قد اتخذ دارا للتخزين .

وهناك دلائل وشواهد وفيرة تشير الى قيام تجارة مثيلة للتجارة السابقة من حيث رواجها وتراوها ، وأعنى التى قامت بين أقليم تاميل Tamil الواقع فى جنوب جزيرة الهند وبين الامبراطورية الرومانية ، وذلك خلال القرون الأولى بعد الميلاد . وحقيقة الأمر أن دولة تاميل كانت تربطها صلات تجارية مزدهرة مع كل من مصر واليونان ، حتى قبل أن يصبح للرومان شأن على مسرح الأحداث الدولية . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن الكلمة العبرية المقابلة للطاووس، والكلمات اليونانية المعبرة عن الزنجبيل والقرفة والرز وما الى ذلك.. هذه الكلمات كلها مشتقة من لغة تاميل . ويصف لنا أحد الملاحين الاسكندريين (٣) ممن عاصر عهد نيرو وعاش فى زمانه ، يصف الرحلة التى تبدأ من البحر الاحمر بحذاء الشاطىء الهندى من مصب نهر السند الى مصب نهر جانجا ولكن الطريق الذى كان مألوفا هو طريق الاسكندرية ـ عدن ـ المحيط الهندى موزيريس Muziris وهى المكان الذى يطلق عليه اسم كرانجانور فى ولاية مالابار . ولقد أضاف بالتأكيد اكتشاف الرياح الموسمية حوالى عام ٥٠ ميلادية ، عنصرا جديدا

---

(١) Milindapanha

(٢) Kalyan Kumar Das Gupta, »Foreign Trade and Gandhara Art QRHS, 5, 201

(٣) جاء هذا الوصف فى : "The Periplus of the Erythrean sea"

وفعالا من الرحلة البحرية التى تقوم من خليج عدن الى الهنـد بين شـهرى مايو وأكتوبر ، وكذلك بالنسبة لرحلة العودة بين شهرى نوفمبر ومارس • ومن الحرى أن نذكر أن العلامة بلايني كثيرا ما أبدى سخطه مما كانت عليه دول الشرق من بذخ وترف يقع عبء تحققه على روما ، فقد كان على روما أن تدفع خمسين مليونا من عملتها النقدية فى كل عام لكى توازن تجارتها مع الهند • وفضلا عن ذلك فلقد عثر على كمية هائلة من العملات النقدية الرومانية فى جنوب الهنـد ، مما ينهض دليلا قويا على عظم حجم التبادل التجارى بين الهند والعالم الرومانى • وكانت الصادرات الهندية تحتوى بصورة رئيسية على مواد الفلفل والتوابل والعقاقير واللؤلؤ والحرير والسجاد (الموصلى) ، وكان أهم ما تستورده الهنـد من الخارج الأحجار الكريمة والخزف والأوانى الزجاجية ، والأوانى الفضية والخمور كما كانت تستورد القوى البشرية العاملة والمؤلفة من البنائين والحرفيين • ومما لا شك فيه أن هناك مغزى من وراء اكتشاف عدد من عينات الزجاج الرومانى فى حفريات دهارنيكوتا Dharnikota الواقعة فى اندهرا (١) • وهناك حقيقة ينبغى أن ننبه الأذهان اليها هى أن أدباء دولة تاميل ومؤلفيها كانوا يشيرون فى كتاباتهم ومؤلفاتهم الى المستعمرات الرومانية التى كانت موجودة فى جنوب الهنـد وفى أماكن محددة مثل موزيريس ومادورا ، وبوكار وأما أهـل تلك المستعمرات فـكانوا يتألفون بصفة أساسية من مواطنين مصريين وسوريين فى حراسة ضباط رومانيين • وبهـذه المناسبة ، فانه يجدر الاشـارة أيضـا الى أنه فى أثنـاء القيـام بحفريات فى بومبـاى عام ١٩٣٩ عثر على تمثال صغير مصنوع من العاج ، ولا شك أن صانعه كان من الهنود المهرة لأن صناعته تشـبه صناعة تمثال الآلهـة الهندية المعروفة باسم لاكسمى Laksmi ويرجح أن يكون قد جلبه معه أحد التجار وهو عائد الى بلده بعـد قيامه بمغامرة فى الهند ، وقد يكون حدث ذلك قبل عام ٧٩ مليلادية وهو العام الذى دمرت فيه بومباى تدميرا كاملا (٢) •

وبقدر ما نعطيه للعـلاقات السياسية من أهمية فى مجـالات الاتصال ، فانه تجدر الاشارة الى ما قام به كادفيس الثالث ، ملك كوصانا فى هذا الصدد، اذ أرسل سفيرا له الى روما لتهنئة الامبراطور تراجان عند توليه الحـكم • والواقع أنه حدث قبل ذلك بأكثر من قرن أن غادر سفير بانديا بلدة برجوكاشا عام ٢٥ ق•م ، وزار الامبراطور أغسطس فى ساموس زيارة رسـمية عام ٢١ ق•م ، حاملا معـه مجموعة من الهدايا ليقدمها الى الامبراطور • ويقال أن من بين ما احتوته الهدايا ثعبانا هائلا وسلحفاة ضخمة وصبيا مقطوع الذراعين ، ولكنه يجيد قذف النبال بقدميه • ومن المعروف أن الهنـد قد أرسلت ما يقرب من تسع بعثـات دبلوماسية لزيارة اباطرة

(١) الحفريات الهندية منذ الاستقلال B.b. Lal, Indian Archeology since Independence, 34.

(٢) Mortimer Wheeler, Rome beyond the Imperial Frontiers, 135 هذا ولا يعتقد سانكاليا Sanka'ia ان هذا التمثال كان يمثل الآلهة لاكسمى (انظر مؤلفه المشار اليه آنفا ص ١٢٠ ، هامش ٩٤)

الرومان حتى عهد الامبراطور قسطنطين ، ولا شك أن الهدف من تلك البعثات كان هدفا سياسيا وتجاريا معا .

ويبــدو انه كان للفلسفة الهنــدية تأثير كبير على مفــكرى العــالم الأغريقى الرومانى ، ومما هو معروف لدينا أن أبولون عاهل تيانا كان قد ذهب الى «تاكسيلا» ليتتلمذ على أيدى العلماء البراهمة الموجودين هناك ، فى حين تعلم باروكسان الغنوصى النزعة ، كثيرا من الغرائب والحقــائق المتعلقــة بالهند ، من الرعايا الهنود الذين كانوا مقيمين فى سوريا (من ٢١٨ الى ٢٢٢ م) ولقد وصــفت النزعة الغنوصــية الروحيــة بأنهــا استشراق فى زى هيلينى ، وكان الحــكيم الاســكندرى كليمنت Clement (١٥٠ ــ ٢١٨ م) أول كاتب أغريقى ينوه فى كتاباته باسم بوذا ، بل انه ذهب الى أبعد من ذلك ، فاتهم الأغريق بأنهم سرقوا فلسفتهم من البرابرة (ولاشك أنه يعنى بذلك الهنود) ــ ويقابل هذا القول ويوازيه ما أشار اليه الفلكى الهندى فاراهاميهيرا Varahamihira بعد ذلك بقرنين من أن علم الفلك كان من العلوم الراسخة عند الأيونيين (اليافاناز)، ووجه الحديث لتلاميذه مشيرا الى ضرورة احترامهم وتبجيلهم مثلهم فى ذلك مثل الحكماء القدامى من الهنود ، وذلك بالرغم من اعتبــارهم من البرابرة ومن ثم فليس بغريب أن تسمى احدى مدارس الفلك الهندية المتقدمة باسم « روماكا Romaka » (نسبه الى روما) وتسمى مدرسة ثانيــة من تلك المدارس باسم باوليزا Pavlisa (نســبه الى بول الاسكندرى ٨٧٣ م) .

هذا وهنــاك ما يبرر الزعم بوجود نوع من التــأثير الهيلنسى على تطور ونمو الدراما فى اللغة السنسكريتية أثناء عصر كوساتا ، فلقد كان هناك نوع من العملات المتــداولة بين البــاكتريان الهنود توحى بأنهــا ذات طــابع هيلنسى ، وذلك لأن تلك العملات كانت تشبه العملات الأغريقية التى كان ينقش عليها أسمــاء الحكام وصورهم وأحيانا كانت تنقش عليهــا بعض العبارات المقدســة المستمدة من الهيكل الأغريقى (١) . هذا فضلا عن أن الأســماء التى كانت تطلق على بعض هذه العملات يمكن ارجاعها الى أصول أغريقية ، مثل دينارا Dinara ودراما Dramma فلاشك أن هذه الألفاظ تمثل بوضوح أشــكالا هندية للالفــاظ الاغريقية المقابلة لها وهى ديناروس Dinarius ودراهما Drachma . كما أن توحيد معايير هــذه العمــلات على أساس الشكل والوزن ، كانت من الأشياء المجهولة بالنسبة للهند فى عصورها القديمة المبكرة (٢) .

---

(١) اقرأ مقال دانيــكار عن « الشرق والغرب » فى مجــلة جامعة بونا Poona قسم الانسانيات رقم ١٧ ص ٧٩ والظر الهامش ٣٦ .

(٢) لقد أظهر العلامة لالنجى Lallanji : ان العصر الذهبى لصك النقود فى الهند يمأمر المعهد المزدهر للتجارة الهندية QRHS, 5, 288 .

ولعل أهم مايمثل مدى الاندماج بين الثقافة الهندية والهيلنسية ، ويجسد بشكل تخليدي تذكاري هذا التزاوج ، يمكن أن نشاهده فى الفن الجاندهارى الذى يطلق عليه اسم الفن الاغريقى البوذى ، ولهذا التعبير دلالته الخاصة ، فان تلك المدرسة التى ينتمى اليها هذا الفن لم تفتح الا بعد انتهاء سيطرة الاغريق المباشرة على الاقليم الشمالى الغربى للهند • كما أن هذه المدرسة الفنية قامت على أكتاف ومساعدات الساكاس cskas والكوصونيين الذين واصلوا تقليد أسلافهم الهيلنسيين • ومن الملاحظ أن هذه المدرسة كانت تتخذ من البوذية الفكرة التى يراد التعبيرعنها، فىحين تتبنى الاسلوب والطريقة الهيلينسية فىخصائصها الناتية، ونذكر على سبيل المثال أننا عندما نشاهد تمثالا لبوذا صنعه مثال جاندهارى فكأنما نشاهد تمثالا لأبولو مرتديا حلة مشققة وفق الطراز الفنى الكلاسيكى ، كما أن صور الحكماء والوعاظ الهنود ، تذكرنا بصور الحكماء والفلاسفة فى العالم الهيلنسى بلحاهم المهدلة الطويلة• وكذلك يبدو أن التعبيرالفنى عنالكائنات الاسطورية أو شبه الاسطورية المعروفة فى الهند مثل إليكصابيى والجاروداسى والنجاسى ، فليست لها من دلالة الا أن تكون ترجمة شرقية للمخلوقات المعروفة بالجن التى تسكن الهيكل الهيلنسى أو البانثيون الاغريقى • هذا وينعكس تأثير الفن الهيلنسى بشكل واضح لا لبس فيه ، فى القسمات المتناسبة للمظهر الخارجى ، وفى تزيين الزى ، وفى تصفيف الشعر واستخدام مفارقه لتمويجه وما الى ذلك من النواحى الذوقية التى تميز الفن عند فنانى جاندهرا (١) •

ومما لا ريب فيه أن النزعة الدينية فى الثقافة الهندية ، باتحادها وصبغها للتذوق الفنى فى الثقافة الاغريقية ، قد أنجبت تلك المدرسة التى أخرجت لنا ذلك الابداع الفنى والانتاج الخلاق للفن السامى •

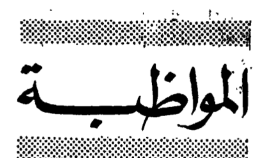
(١) يعتقد العلامة ك•ك• داس جوبتا ان فن هذه المدرسة لم يكن الا جزءا لا يتجزأ من الفن الهيلينسى ، وقد استمد مقوماته الأساسية من البوذية والرأسمالية على اساس ان العنصر الاخير كان نتيجة لازدهار ونمو التجارة بين الهند والعالم الرومانى ، كما يرى العلامة ر•ن دالدكار أننظرة الهنود المجردة للفن ما كانت لتشجع نحت أو حفر تماثيل فردية وانما جاء هذا التشجيع من تأثير ثقافة الغرب التى كانت تنحت تماثيل للاشخاص ومن هنا ظهرت التماثيل التى تجسد بوذا • راجع كتابه الشرق والغرب ص ٧٨

الكاتب : و • ن • داندیکار

ولد عام ١٩٠٩ فى ولاية ماهاراثيا بالهند . وهو أستاذ اللغة السنسكريتية بجامعة بونا منذ ١٩٣٣ ، والأمين الفخرى لمعهد باهانداكار للابحاث الشرقية فى بونا منذ ١٩٣٩ • ورئيس قسم اللغات السنسكريتية والبراكيتية فى جامعة بونا منذ ١٩٥٠، ومدير مركز الدراسات الشرقية المتقدمة فى السنسكريتية ، بجامعة بونا ، منذ ١٩٦٤ ، وعميد كلية الآداب بجامعة بونا من ١٩٥٩ الى ١٩٦٥ ، ووكيل جامعة بونا عام ١٩٦١ • وقد قام برحلات عديدة الى أوربا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وجنوب شرق آسيا واليابان •

المترجم : د • احمد الخشاب

أستاذ علم الاجتماع والانثروبولوجيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة• حاصل على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٢ • ومن مؤلفاته : دراسة النظم الاجتماعية فى المجتمعات المتخلفة ، علم الاجتماع أصوله ومفاهيمه، سكان المجتمع العربى ، الضبط الاجتماعى، الاجتماع التربوى والارشاد الاجتماعى ، الاجتماع الدينى ، العلاقات الاجتماعية ، دراسات انثروبولوجية واثنوجرافية ، [illegible] الاجتماعى ، [illegible] انثروبولوجية ، المتغير الاجتماعى •



بحث فى سيكلوجية الإنسان الحديث

بقلم : ريمون ميلكا
ترجمة : أمين محمود الشريف

المقال فى كلمات

تعتبر المواظبة ،خاصة فى عصرنا الحاضر، عصر السرعة المذهلة الذى يحسب الزمن فيه بالثوانى وبأجزائها ، أمرا بالغ الأهمية · ان الوقت فى عصرنا الحالى ليس من ذهب فحسب ، بل هو أغلى ، لأنه اذا ضاع فلا مرد له · وتعنى المواظبة السيطرة على الزمن وتسخيره لأعمالنا واستخدامه فى أوجه نشاطنا ، والسيطرة على الزمن شرط من شروط النجاح · والدقة فى مراعاة المواعيد هى عماد المجتمع ، لأنها تسمح لكل فرد أن ينظم حياته بما يتفق مع المطالب الاجتماعية والالتزامات التعاقدية فى المجتمع · وليس هناك ما هو أشد مضاضة على النفس من أن يرى المرء غيره غير مكترث بما يتجرعه من غصص الانتظار · ومن هذا يتضح أن المواظبة ضرورة وفضيلة فى وقت معا · وتتخذ المواظبة فى كل

مكان وزمان معيارا للحكم على النـاس • وتهدف دقة المواعيد الى محالفة الزمن والافادة منه ، والى ايجاد نوع من النظام فى الحياة، ومسايرة الزمن اما لمتـابعة تطوره واما للانسياق فى تيـاره دون تخلف ، فالويل لمن لا يساير الزمن • وقد أصبحت المواظبة اليوم القاعدة العامة بل أصبحت هى القانون •

ويتناول الكاتب فى مقـاله ضرورة « ترشـيد الوقت » أى تنظيمـه على أسـاس علمى حديث ، لا يقيم وزنا للغيبيـات التى لا يمـكن التنبؤ بهـا ، ولا للمصادفات التى قد تقوض ما بنى • ويتناول كذلك أهمية مراعاة المواظبـة والمحافظة على المواعيد فى المكاتب والدواوين ، ومن رأيه أنه كلما ارتقى الانسان فى سلم المسـئولية والسـلطة أصبحت المواظبـة أمرا محتما يوما بعـد يوم • ويعتقد الكاتب أن الحياة الحديثة بتقدمها التكنولوجى الهائل تولد فى الانسان الرغبـة فى عدم تضييع الوقت وهو سلعة ذات قيمة عالية فى عصرنا الحاضر ، وكذلك الرغبة فى ترتيبه وتنظيمه وانفاقه بطريقة رشـيدة ، ومن ثم تدفعـه الى المواظبة والدقة فى المواعيد التى تتطلبها كذلك الحياة الاجتماعية الحالية بما فيها من التزامات وارتباطات متعددة ، والحياة المهنية الحديثة المتشعبة • ويتحدث الكاتب أيضا فى مقاله هذا عن تنظيم أوقات الفراغ ومفهوم الفراغ فى العصر الحديث ، وأهمية الزمن كعنصر هام فى الخطط السياسية والعسكرية ، مبينا أن الزمن فى السياسة لا يسير على وتيرة واحدة : أحيانا يكون سريعا ، وأحيانا يكون بطيئا ، وتارة يكون متوترا ومفاجئا ، وطورا يكون بطيئا بدرجة تدعو الى اليأس•

ان الانسان الحديث فى العالم الغربى يخشى دائما ضياع الوقت • ولذلك تراه يقيس الزمن ، ويستخدمه بمقـادير قليلة ، ويصرف أعماله على نحو يقلل من ضياع الوقت بقدر الامكان ،فينظم مواعيـده بدرجة كبيرة من الدقة • وتشـتهر المـكاتب والدواوين بالحرص على المواظبة حتى لقد أصبحت كلمة «عاجل» من الكلمات الشائعة الاستعمال فى الوقت الحاضر • ويحرص أبطال الألعـاب الرياضية على تحطيم الرقم القياسى بأعشار قليلة من الثوانى ، ومما يدل على اهتمام الانسان الحديث بالوقت انتشار آلات قياس الزمن فى كل مكان : كساعة اليد، وساعة الحائط، والكرونومترا والمفكرات ، والتقاويم الخ • وتدرك الشـعوب المتحضرة فى الوقت الحـاضر قيمة الوقت ، وترى من حسن التدبير أن يوزع المرء وقتـه بطريقة اقتصادية على جميع

الأعمال التى يضطلع بها فى حياته • يقول المثل الدارج « الوقت من ذهب » وفى وسع المرء أن يرى مئات من الناس يعربون عن حرصهم على « عدم اضاعة وقتهم » فى أعمال قليلة الأهمية « تحتمل الانتظار » أو « لاتستحق اضاعة الكثير من الوقت فى أدائها » • ولذلك فان أهمية أى من الأمور تقاس فى الواقع بمقدار الوقت الذى يرغب المرء فى انفاقه عليه • وكذلك يزداد الوقت نفسه دقة وضبطا، فنحن نحاول اليوم أن ننجز فى أقل فترة ممكنة من الزمن أعمالا كثيرة كنا نوزعها فيما مضى على فترة طويلة من الزمن • ذلك أن الطابع الذى يميز حضارتنا هو طابع العجلة وقلة الصبر • وهناك وسائل عدة لتنظيم حياتنا بمراعاة الاقتصاد فى الزمن ، كالدراسات الخاصة بالزمن والحركة ، والجداول الزمنية التفصيلية ، والتقاويم المتقدمة ، ومفكرات المواعيد اليومية ، وبرامج العمل الموضوعة على أساس جدول زمنى • وفى كل لحظة من لحظات حياتنا ندرك الحاجة الماسة الى قياس الزمن • ويمكن أن يقال أن التقدم الفنى هو من بعض الوجوه وسيلة للاقتصاد فى الزمن ، كوسائل النقل السريعة ، وأجهزة الاقتصاد فى العمل التى تهدف الى تخفيف العبء عن المرأة فى الوقت الحاضر ، والتليفونات التى تعمل على سرعة الاتصال (بعد أن ثبت أن البريد وسيلة بطيئة نسبيا للاتصال) • والحاسب الالكترونى الذى ينجز عدة عمليات فى الثانية الواحدة ••• ويبدو أن الانسان يعتبر اليوم بطيئا جدا بالقياس الى « سرعة » العالم ، فأفعاله الانعكاسية ليست سريعة بدرجة كافية كما يتجلى فى حوادث السيارات ، وتريثه قبل اتخاذ قرار قد يكون وخيم العاقبة فى أوقات الطوارىء • ومن هنا وجب عليه دائما أن يكون سريعا فى حركاته وردود فعله • وأخيرا قد تضطره بعض المواقف أو المشكلات الى أن يتصرف بطريقة فورية ، وهذا هو أساس الاختبارات التى تهدف الى معرفة الصفة العضوية عند شخص ما • ومن المعروف أن القرن الذى نعيش فيه هو قرن السرعة ، سرعة العامل الذى يدير الآلة ، وسرعة الرد بجواب مسكت فى حجرة الاستقبال ، وسرعة البطل الرياضى فى الملعب ، وسرعة القمر الصناعى ، وسرعة رجال الاسعاف فى الطريق • والواقع أن الانسان « يجب أن يساير زمانه » ومن الضرورى أن يكون دائما مسرعا ، لأن هذا ما تقتضيه أوضاع الحياة فى الوقت الحاضر • وآية ذلك أنك لو أنعمت النظر فى تطور الأدب لوجدت أن مجلة « أمريكان دايجست » ـ وهى مجلة لها نظائر تحاكيها فى العالم كله ـ تلخص لك أعمال بلزاك فى عشرين صفحة أو أقل، ولوجدت أن القصة البوليسية التى لا تتضمن تحليلا نفسيا ولا تصويرا للمجتمع وانما تتضمن وصفا لعمل يقترن تنفيذه بقرع الطبول هى أكثر نجاحا من القصة الطويلة التى تقع فى ثلاثمئة صفحة • ولو أنك أنعمت النظر فى الصحافة لوجدت العناوين الكبيرة على الصفحة الأولى تحتل مكان التحليلات الصحفية ولوجدت الصور التى تلتقط على عجل تحل مكان دراسة المشكلات السياسية • واذا تأملت فى الثقافة

وجدت الطرائف التاريخية والعلمية أكثر نجاحا من الدراسات الأدبية أو العلمية التى تستغرق وقتا طويلا . واذا تأملت فى الموسيقى وجدت الاسطوانات الحديثة التى تمتاز بأنها مختصرة اذا قيست بالأعمال الموسيقية الكلاسيكية ... كل هذه الملاحظات تجمعها فكرة واحدة وهى أن الرغبة فى عدم ضياع الوقت قد أصبحت متسلطة على أذهان الناس، وهذه الرغبة هى التى توجه الآن حياتنا المهنية، وتوجه تذوقنا للأعمال الفنية ، وإسلوب تفكيرنا وشعورنا. كما أنها توجه الى حد ما حياتنا الخاصة.

وما تجدر ملاحظته أن هذه الرغبة ليست مقصورة على طبقة اجتماعية خاصة ولا على أمة واحدة . ذلك أنها ترتبط باتساع « الوسط التكنولوجى » (ج. فريدمان) ، وهى من العوامل التى تحدد هذا الوسط . ولما كانت هذه الظاهرة من الظواهر الهامة التى تمس كل ناحية من نواحى حياتنا ، وتؤثر تأثيرا عظيما فى نفسية الرجل الحديث وجب علينا قبل كل شىء أن نتعرف منشأ هذه الرغبة ثم ندرس آثارها البارزة فى حياتنا . ولا ندعى أننا سنستقصى البحث فى هذا الأمر وكل ما سنفعله أننا سنحاول الربط بين بعض الظواهر التى ظل الناس حتى الآن يعدونها ظواهر منفصلة لا رابطة بينها ، كما أننا سنحاول الكشف عن دور المواظبة كمبدأ عام لترشيد حياتنا (على حد تعبير ماكس فبر) .

أولا : منشأ رغبة الانسان الحديث فى المواظبة

ان الميل الى المواظبة هو وليد رغبتين : الرغبة فى عدم تضييع الوقت وهو سلعة ذات قيمة عالية فى عصرنا الحاضر ، والرغبة فى ترتيبه وتنظيمه وانفاقه بطريقة رشيدة . فمن ناحية نجد الناس يعتقدون أن كل دقيقة ذات قيمة ، ويميلون الى السرعة « لذاتها » ومن ناحية أخرى نجدهم يحرصون على ترشيد الوقت أى تنظيمه على أساس علمى لا يقيم وزنا للحوادث الغيبية التى لا يمكن التنبؤ بها ولا للمصادفات التى تهدم المشروعات ... ولذلك يجب توجيه الحياة نحو هدف معلوم دون أن نسمح للحوادث الغيبية وغير المعقولة أن تعوقها . صحيح أن هناك تعارضا من بعض الوجوه بين الرغبة فى المتعة العاجلة واغتنام الوقت الذى يمر بسرعة وبين الرغبة فى اطالة الروية ، والتبصر فى عواقب المستقبل ، والتنظيم الدقيق للمهام التى يجب أداؤها ، ولكن التجربة دلت على أن الرغبة فى التقدم بسرعة تؤدى الى الترشيد فالأمران كلاهما يسيران معا فى وقت واحد. وفى حين أن المواظبة الدقيقة تفضى إلى الضجر والملل ، نجد أن الرغبة فى توفير الزمن تجعل الانسان دائما فى حالة من التوتر الشديد لأنها تجعله خاضعا لهذه الفكرة المتسلطة على عقله . فكيف وصلنا الى هذا الموقف الذى ينطوى على التناقض ؟

أ : الحياة الحديثة تضاعف عدد « الفترات الميتة » من الزمن وتدفع الانسان الى توخي المواظبة

ان الحياة الحديثة هي بطبيعتها حياة حضرية أي تقوم في المدن. وفي التجمعات الكبيرة نلاحظ ضياعا كبيرا للوقت قلما يشعر به الأفراد، فيجب علينا أولا أن نحسب الوقت اللازم للانتقال الذى يحتمه حجم المدينة ، والمسافه بين المسكن والعمل ، وهو وقت لا بد من انفاقه ،ولكنه يعد وقتا ضائعا لا يمكن تعويضه . ويجب علينا أيضا أن نحسب حالات النظام الجماعي الذى يقتضيه حجم السكان كما تقتضيه الحاجة الى ايجاد نوع من الحياة الاجتماعية عن طريق وضع قواعد صارمة ابتداء من فرض قيود على أماكن انتظار السيارات في الشوارع الى تقرير مواعيد رسمية للمكاتب والدواوين . وان ما يمكن احتماله في بلدة صغيرة لا يمكن قبوله في مدينة كبيرة تعاني من مشكلات المرور ، وازدحام المقاصف والمطاعم في ساعات الذروة ، والاقبال الشديد على المتاجرالكبيرة في الأيام التي تخلو فيها ربات البيوت من العمل، وهكذا. واذا أريد أن لا تصاب المدينة بالشلل وجب علينا أن نراعي المواظبة الدقيقة في جميع أعمالنا اليومية . ومن خصائص المدن الكبرى أن مطالب أهلها متماثلة في أوقات متماثلة ، ففي الصباح يحتاجون الى وسائل الانتقال ، وفي نهاية الاسبوع يحتاجون الى وسائل السفر ، وفي الظهيرة الى مكان يأكلون فيه ، وفي المساء الى مقعد في السينما . ولكي نرضي كل انسان يجب علينا مراعاة هذه الاحتياجات ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا بوسيلة واحدة هي الاقتصاد الشديد في الوقت وزيادة سرعة جميع الخدمات وهكذا . ولما كانت حياتنا الخاصة موزعة بين أعمال ذات توقيت دقيق فان هذه الحياة لن تكون ميسورة الا اذا خضعت لقيود المواظبة ، فاذا لم نصل في الموعد المضروب لمقابلة شخص ما ، فلن يتسنى لنا أن نراه على الاطلاق ، فالمواعيد يجب احترامها بدقة ، اذا أردنا أن نقابل الشخص المذكور وهكذا . ويجب الوفاء بالوعد والقيام بالعمل في الموعد المحدد ، والا اضطربت كل الخطط الموضوعة ، وتفككت الروابط الاجتماعية . وان حياتنا الخاصة لن تنتظم في الوقت الحاضر الا بشرط ألا يعتدى أحد على المواعيد المهنية والاجتماعية التي يعرفها ويقبلها كل انسان . ان عقدة « التأخر » عقدة خطيرة في المجتمع الراهن ، ذلك أن وصول المرء متأخرا عن ميعاده هو عمل خاطيء وذميم . ومما تجدر الاشارة اليه أن المواظبة توجد في كل مكان حتى وان بدت أحيانا غير موجودة . فالموظف الكبير الذى يصل في الساعة العاشرة صباحا ليس متأخرا لأن الموعد الذى يحضر فيه يرتبط بموعد غيره ومن هنا فليس ثمة مخالفة لمبدأ المواظبة . وكذلك كثافة السكان تؤدى الى وقوفهم في صفوف انتظارا لدورهم ، وهذا النظام هو آفة الحياة في المدن الكبرى . ويبدو دائما أن ذلك يرجع الى التماس الناس لكثير من احتياجاتهم في وقت معين ، مما يؤدى الى استحالة الوفاء بها في وقت واحد ، ومن هنا وجب عليهم أن ينتظروا فمنهم من

يتقبل هـذا الانتظار ومنهم من يضيق به ذرعا . والناس يتبرمون بالصفوف لأنها تؤدى الى ضياع الوقت والوقت من ذهب" أما الذين لا ينتظرون فأولئك قوم أسعدهم الحظ لأنهم يملـكون بطاقة « سحرية » . وكذلك يحدث أحيـانا أن يضطر المرء الى الانتظار فى الطريق خلف صف من عربات المرور، فيضيق ذرعا بهذا الانتظار، وهذا الضيق يدل على أهمية الوقت، لأن الانتظار قد يفوت على الانسان موعدا من المواعيد. ولكى يتفادى الانسان الانتظار يصل قبل الميعاد حتى يتسنى له أن ينصرف فى الموعد المضروب . وهنا أيضا نجد أسطورة المواظبة تتحكم فى سلوكنا وأفكارنا . وصفوة القول أن الانسان الحديث الذى تدعوه حاجاته الى كل مكان يشعر بأنه لم يعد يدرى أين يتوجه ، وأوقات فراغه يعكرها الخوف من التأخير . وقد يحلو لنا أن ننصح له بأن يخفف من حدة نشاطه ، ويقلل من حاجاته ، ويقتصر على الأمور « الجديرة بالاهتمام » وقد يحلو لنا أيضا أن نبين له أنه يضيع الوقت كثيرا فى أمور لا داعى لها . بيد أن كل هذه النصائح لاقيمة لها لأنه يشعر بأنه مسوق فى تيار يزداد سرعة يوما بعد يوم، كما يشعر بأنه لا يستطيع أن يتخلف عن المساهمة فى جميع الأعمـال التى تفرضها عليه الحياة الحديثة ، وأنه مطالب بان يبذل جهده فى العمل الذى يمارسه ، ويؤرقه الخوف من العجز عن القيام بكل ما يطلب منه . ولا شك أن جذور هذا الشعور عميقة جدا .

ب : مسئولية التقدم الفنى

ان أبسط تعريف للتقدم الفنى أنه احلال الآلة محل الانسان أو الحيوان عندما يؤدى هذا الاحلال الى سرعة أو دقة أو استمرار أكبر أو الى نفقات اقل ، وبالاختصار عندما يتم انجاز العمل بطريقة أفضل . وللتقدم الفنى خصائص ثلاث جديرة بالذكر أولها أن الآلة تحتاج الى التجديد فى أغلب الأحيان ممـا يؤدى الى سرعة استبدال المعدات، وثانيها أن الآلة تحتاج الى انسان لكى يراقبها على أن يكون قادرا على متابعة سير عملها ، وثالثها أن الآلة تستغنى عن الانسان عندما يبدى عجزا عن منافستها، مما يترتب عليه تغيير صانع الآلة نفسه (انظر مؤلفات فريدمان) . ونحب هنا أن نوضح تأثير هذه الخصائص على الرغبة فى المواظبة . اننا نعلم أن أهم ما تمتاز به الآلة هو اداء عدد كبير من الأعمال او العمليات فى فترة محدودة من الزمن: ابتداء من الحاسب الالكترونى الذى يدهش المبتدىء بأعماله الفكرية الجليلة ، الى الآلات الدقيقة التى تصنع سن اللولب بسرعة كبيرة . ومن الواضح أن التقدم الفنى يرتد أثره الى الانسان نفسه ، فالألعاب الرياضية التى ليست فى حقيقتها سوى صورة من صور المنافسة القائمة على السرعة تستهوى أفئدة الجمـاهير وتثير حماستهم من اليابان الى الولايات المتحدة بمـا فى ذلك أوربا . والقرار السياسى يعتبر أفضل رد فعـل لمجموعة من الظروف التى تتطلب اسـتجابة سريعة . وأن أسـطورة الاستعجال السياسى ليست سوى الوجه الآخر لعقدة «التأخر» ، ورغبة فى تفادى المتاعب الناشئة عن الاستعجال

نلجأ الى اعداد الملفات ، وتبويب المعلومات والبيانات ، وتحديد المواعيد ، وتنظيم الوقت . ولكي نكسب الوقت الذي بدونه لا يمكن الاقدام على أي عمل جديد نضطر الى اختزال أعمالنا الأخرى الى أدنى حد . ومن ذلك نرى كيف يؤدي هذا الاهتمام الى المواظبة الشديدة ، وخضوع الانسان لقيود ساعة الحائط حتى يتسنى له أن ينجز جميع أعماله . وهذا ناشيء الى حد ما عن المنافسة التي تنطوي عليها الآلة التي تستجيب فورا لكل طلب دون كلل فضلا عن أن استخدامها يتم طبقا لخطة دقيقة . ولكن الآلة لا تستطيع أن تعمل من تلقاء نفسها ، فهي تحتاج الى رجل يديرها ، وعقل ذكي يراقبها ، ويصلحها عندما تصاب بالعطب ، ويدخل عليها أساليب جديدة . ومن هنا يضطر الأفراد الى أن يتابعوا سير عمل الآلة ومن ناحية أخرى نجد أن تكاليف الآلة عالية ، ويشير معدل استهلاكها الى ضرورة استخدامها باستمرار عن طريق المناوبات بالليل والنهار . ولذلك فان عالم الآلات هو في الحقيقة عالم المناوبات المنظمة والاستخدام الأمثل لوقت الآلة الخ . وهذا كله يفضي بنا عن طريق آخر الى ضرورة المواظبة . ذلك أن الآلة تتطلب ذلك النوع من «البرامج» الذي يتصل بالحياة المهنية للعملاء والفنيين ومن ثم بأفعالهم الانعكاسية ، وعملياتهم الفكرية ، واستجاباتهم النفسية لعملهم . ومن الواضح أيضا أن التقدم الفني قد أصبح ذا طابع عالمي بالنظر الى العلاقات التي تربط بين مختلف ضروب التكنولوجيا كالنقل والتنظيم والمعلومات الخ . وهذا الطابع العالمي يشتمل على مبدأ الترشيد الاقتصادي أي الرغبة في انجاز أكبر قدر ممكن من العمل بنفقات قليلة في الحياة اليومية . وهذه الرغبة تؤدي الى ضرورة المواظبة ، نظرا لأن فكرة « الزمن الذي يتحتم انفاقه » هي أحد المتغيرات الأساسية للعمل . وأخيرا فان التقدم الفني يؤثر في الآلات المستخدمة في قياس الزمن ومن هنا يأتي ادراكنا للزمن ، فيصبح قياسنا للزمن أكثر دقة وضبطا وأكثر اتساقا مع مبادىء العلم . واذا كان الزمن لا يدرك باللمس ، ولا نعرفه الا عن طريق التأمل والتفكير (كما يرى برجسون وغيره) فانه في عصرنا الحديث قد أصبح شيئا يمكن قياسه واقتصاده وتوزيعه كما يمكن ضياعه . وهذا الطابع المحسوس للزمن في عصرنا الحديث الذي يرجع الى تحسين الآلات المستخدمة لقياسه هو من الظواهر الأساسية في عصرنا الحاضر التي تضطرنا الى اعادة النظر في أقسام الفلسفة عند القدماء .

ج : الانتاجية المكتبية والديوانية ، ومبدأ المواظبة

تتلخص الثورة الديوانية (البيروقراطية) في توجيه الاهتمام الى فكرة «العائد» (أو كما يقول ج . أردانت «انتاجية الدولة») . وقد ترتب على هذه الثورة أن زالت الديوانية المرادفة للبطء القاتل ، والاجراءات الشكلية القانونية ، والعادات البورجوازية وحل محلها نظام يهتم بالكفاية والعائد ، ويضع المطالب الاقتصادية في المكان الأول من الأهمية . وقد ساعد ذلك على نمو الرغبة في المواظبة ، وجعل

الدواوين والمكاتب أشد حرصا على مراعاة التنظيم والحسابات وتبويب المعلومات والبيانات على أساس علمي دقيق . وأصبح الهدف من الرقابة على الادارة لا يقتصر على اكتشاف المخالفات القانونية بل تجاوز ذلك الى الاهتمام بأداء الأعمال على نحو أفضل ، ومنع الموظفين من التراخي في أداء أعمالهم . ويلاحظ أن كثرة الاستمارات التي يجب ملؤها ، وكثرة البطاقات والملفات وما شابهها قد أدت الى زيادة تأثير الدواوين والمكاتب على الحياة اليومية ، ولذلك أصبحت هذه الحياة خاضعة لاتجاهات جديدة من الديوانية. ولكن التليفون الذي يستدعي العميل أو الرجل صاحب الشأن الذي يتعامل معه الديوان ، قد ساعد على سرعة الاجراءات الادارية واختصر الطريق الذي تسير فيه الملفات المختلفة، وعجل بساعة القرار وبذلك غير التليفون من النفسية التقليدية للادارة . أما قبل استعمال التليفون فلم تكن ثمة حاجة الى الاهتمام بالتأخير وما يترتب عليه من الانتظار . وكان هذا الوقت الكثير من امتيازات الادارة التي ساعدت على زيادة هيبتها . أما اليوم فان الزمن اللازم لأي اجراء مبين في الاعلانات العامة ، والقوانين تنص على الشروط والمواعيد الخاصة بتسلم الطلبات . وقد تبدو اللوائح الديوانية أحيانا مبررا لمزيد من التأخير والتعطيل ، ولذلك كان من حقنا أن نفترض أن الجمهور يستعجل الاستجابة الى طلباته. والادارة تشارك في هذا التفكير على مستويين : مستوى العاملين ، ومستوى الجمهور .

ولنتكلم أولا على مستوى العاملين. أن المكتب أو الديوان هو المكان الذي تحتل فيه الجداول الزمنية المكان الأول من الأهمية . ان ساعة الحائط الكبيرة تجعل كل موظف على علم بما مضى من اليوم . ولما كان تكدس الملفات أمام الموظف يختلف في أثناء اليوم ، فينقص كلما تقدم العمل ثم يزداد عندما ترد ملفات جديدة للتصرف فيها ففي وسع الرئيس أن يكون فكرة تقريبية عن انتاجية كل موظف . والعمل الجماعي ، ووضع جداول زمنية دقيقة ، عاملان يساعدان على سرعة انجاز الأعمال. ويلاحظ أيضا أن التقدم الفني في خدمة معينة ـ كاستخدام البطاقات المثقوبة مثلا في المعلومات والبيانات ـ يساعد على سرعة البت في عدد كبير من الملفات وحتى لا يكون هذا البت سطحيا ينبغي عمل حسابات دقيقة جدا وضبط الجداول الزمنية الخ . وفضلا عن ذلك فهناك مكاتب متابعة الأعمال ودراستها ومهمة هذه المكاتب بالطبع هي تنشيط الادارات المتأخرة التي تعطل عمل الوزارة وهو أمر لا يطاق احتماله . ومن ثم يؤمن الديوانيون (البيروقراطيون) المحدثون بأهمية وضع البرامج والجداول الزمنية . وهم يريدون قياس الزمن في كل مكان انسياقا مع ميلهم الطبيعي . وبذلك يجعلون أنفسهم من حيث لا يشعرون دعاة متحمسين لهذه الحركة .

ثم نتكلم ثانيا على مستوى الجمهور. فنلاحظ أن الديوان بالنسبة للجمهور الذي تخدمه الادارة ، أشد بطؤا من المصنع . صحيح أن الملفات تساعد على اتصال الادارات بعضها ببعض ، كما تساعد على اجراء التحريات واستشارة الخبراء ، وعمل المراجعات ودعوة اللجان الى الاجتماعات وكل ذلك يستدعي قسطا من الزمن ، ولكن

الدواوين – من ناحية أخرى – مولعة بوضع جداولها الزمنية (مواعيد الحضور والانصراف) وبتحديد آخر موعد لتلقى الطلبات (وهذا الموعد لا يمكن مده في أغلب الأحيان) . كل ذلك هو مظاهر سلطتها التقديرية ، وهى لا تريد أن تتخلى عن النظم والتقاليد التى ترتكز عليها سلطتها . واليوم تقع الدواوين تحت ضغط مزدوج من الجمهور (الذى يبدى استياءه من التعطيل والانتظار ويرحب بالوعود التى تبذل بشأن تعديل الاجراءات وتخفيض عدد الرحلات التي يقوم بها كل ملف) ومن الرؤساء من يقدرون اعتماداتهم المالية تقديرا دقيقا بقدر الامكان ، ولذلك يطالبون اداراتهم بالمزيد من الانتاج . والديوان يستجيب لهذا الطلب المزدوج بمراعاة المزيد من الدقة والمواظبة وبذلك يغير من سلوك الجمهور الذى يتعامل مه انها عملية ذات شقين: الدواوين تنمى الميل الى دقة المواعيد ، وتعمل على أن تصبح جزءا من حياة الانسان.

د : « الروح الاقتصادية » والوقت باعتباره سلعة قيمة

تقوم « الروح الاقتصادية » – كما درسها و. سومبارت – على أساس عدد صغير من الحكم البسيطة التى تبرز أهمية الوقت كعامل من عوامل اقتناء الثروة . الحكمة الأولى : « على المرء أن يتعلم كيف يغتنم الفرصة فى اللحظة المناسبة » . ومن هذه الحكمة يتضح أن الثراء رهن بحسن اختيار اللحظة المناسبة . والحكمة الثانية : « تبنى الطيور أعشاشها شيئا فشيئا » . ومعنى ذلك أن جمعك المال الى المال – ولو كان نزرا يسيرا – خليق بأن يجعل منك رجلا واسع الثراء (هذه الحكمة تدعو الى الادخار) . ومن ذلك يتضح أن الوقت هو مصدر الثراء (مثال ذلك الفائدة التى تدفع فوق رأس المال) . وتمتاز الروح الاقتصادية بالرغبة في اتخاذ المال معيارا عاما لتقدير كل شيء ، كما تمتاز بالخوف من ضياع سلعة من السلع الموجودة فى حوزة الانسان، والمال هو أحدها. ويؤخذ من التحليل الدقيق الذى قام به سومبارت أن الرجل الاقتصادى الحديث (البورجوازى) حاول دائما أن يحسن استخدام الوقت ، ووسائل حصوله على المكاسب الكبيرة . ولا شك أن الميل الى المواظبة هو نتيجة مباشرة لهذه النزعة الاقتصادية . واذا كان من المستحيل ادخار الوقت على النحو الذى يتم به ادخار المال فلا شك أن الوقت هو مصدر الثراء لأنه يسمح بتكدس المال (تأمل الشجرة التى تنمو وتوتى أكلها كل سنة) . ويجب أن يكون الوقت الضائع متناسبا مع حجم العمل المراد أى أن يكون هناك تطابق بين هذا الضياع أو الفقد كما تقيسه الساعة وبين الربح الناتج عنه الذى يعتبر فى الحقيقة مقياسا لحجم العمل المشار اليه . وظاهر أن التغيرات التكنولوجية تقلل دائما من الوقت اللازم لعملية ما أو لعمل آلى أو شبه آلى . والوقت الذى يتسنى توفيره بذلك يتيح للانسان الفرصة لممارسة عدد أكبر من الأعمال – أو بعبارة أخرى يزيد من فرص الثراء . وهكذا يصبح الوقت سلعة ككل السلع الأخرى ، وتتقلب قيمته كما تتقلب قيمة السلعة طبقا لطبيعة العمل الذى يتم تخصيص هذا الوقت له ، وفى هذا ترتبط

ارتباطا وثيقا بالميل الى المواظبة . الا أن الوقت لا يتسنى ادخاره كما يتسنى ادخار السلع الأخرى . ولذلك فالوقت الذى يضيع فى الانتظار دون عمل يعد ضربا من الخسارة . ومن الطبيعى أن يقترن انتقليل انعام للخسائر - وهذا أمر يرادف التقدم الاقتصادى - بأدق قياس للوقت أى بالتوزيع الأمثل للأعمال بقصد القضاء على « الفترات الميتة » التى تعد خسائر لا يمكن تعويضها . وقد أصبحت المواظبة فى ميدان التجارة ضرورة لا غنى عنها ، اذ أصبح الوقت أغلى قيمة من المال ، لأنه اذا ضاع فلا مرد له . ومن هنا وجب على المرء أن يلتمس آلاف الفرص للانتفاع به ، وأن يضيق ذرعا اذا تعطل أو توقف . ولذلك نرى كبار رجال المال يتميزون من الغيظ اذا وصلهم أحد الأنباء متأخرا . ويجد الاقتصاديون من المتعذر عليهم أن يطيلوا أمد التفكير الذى يفقد فيه التقويم الدقيق أهميته ، وذلك لأن الأعمال الاقتصادية تخوض فى نظرهم سباقا دائما مع الساعة ، فاذا لم تكن هناك ساعة لم يكن لديهم دليل يسترشدون به فى أعمالهم الاقتصادية . والتوقع الاقتصادى هو من أهم ما تعنى به النظرية الاقتصادية الحديثة ، ومعناه الطريقة التى يتوقع بها رجال الاقتصاد تطور الأسعار والأجور ، ويحسبون بها الفائدة التى تدفع عن اعتمادات البنوك ، والتى يتاجرون بها فى عقود سوق الأوراق المالية . وتعترف النظرية الاقتصادية أيضا بفكرة « التأخير » فى أى رد من ردود الفعل وبفكرة نشأة ونمو رأس المال التى تمثل ادخال عنصر الوقت فى التحليل الاقتصادى ومن ثم تتضمن الاهتمام بدقة التوقيت . ومن هنا نفهم السبب، فهذا الاهتمام بدقة التوقيت له تأثير سوف نعرض له بالتحليل مع شىء من التفصيل ، فالتفكير وانعام النظر والبحث كل ذلك يستغرق قدرا كبيرا من الزمن . ولاندرى على وجه اليقين: أيهتم الانسان الحديث بهذا النشاط الفكرى اهتماما يكفى لتبرير ما ينفق عليه من وقت ؟ يضاف الى ذلك أن التفكير لا يمكن أن يتم الا بعقل هادىء يأخذ حظه من الراحة والاستجمام ، ولكن الميل الى دقة المواعيد يتعارض مع هذه الحالة . ومن هنا نجد تغيرات هامة فى سلوك الناس (وسندرسها فى القسم الثانى من هذا البحث) . وعلى أية حال فان الرجل الاقتصادى يجمع بين دقة المواعيد والتفكير العلمى المنطقى ، ويجعل الأمرين جزءا من كيانه ، وهو التجسيم الحى لهذا المبدأ المزدوج . ذلك أن مواعيده التجارية ومحادثاته المسجلة ، وتقسيم وقته الى وقت يخصصه للأعمال التجارية الكبرى وهو وقت يتسم بطابع الجد والأهمية ، والى وقت يخصصه للمشروعات ذات الأهمية الثانوية التى يشغل بها نفسه فى وقت فراغه حتى لا يظل عاطلا ، ثم حبه لقراءة العناوين الحية فى الصحف ، كل أولئك محكوم بهذا المبدأ المزدوج ، مبدأ دقة المواعيد والسرعة الذى يعد السمة المميزة للشخصية التى يفخر بها . وهنا نلاحظ أن هذا الرجل الاقتصادى يجمع بين دقة المواعيد والمقدرة الشخصية ، وهو أمر يستند الى حقيقة أن التوزيع الرشيد للوقت من أجل الأعمال شأنا ، وأن الوقت سلعة ذات أهمية عظمى . وفضلا عن ذلك فهذا الرجل « مثقل بالأعباء » ومرهق بالمسئوليات: كتوقيع الأوراق،

ومقابلة العملاء واتخاذ القرارات، والاطلاع على الملفات، ومراقبة الموظفين الاداريين الخ. ومثل هذه المهام الكثيرة تنوء بكاهل الفرد العادي . والرجل العظيم لا يستطيع أن يحتفظ بكرامته ازاء هذا السيل من المطالب ألا اذا طالب غيره بضرورة الدقة في المحافظة على المواعيد الخ . ولذلك فان المواظبة تصبح أمرا محتما يوما بعد يوم كلما ارتقى الانسان في سلم المسئولية أو السلطة ، ثم تسرى منه هذه الروح بطريق التقليد والمحاكاة الى بقية أعضاء الهيئة الاجتماعية . واذا كان الرجل العظيم في عجلة من أمره كان ذلك أدعى الى ايهام غيره بأنه رجل عظيم ، وأحيانا تكون هذه هي الوسيلة الوحيدة لحمل الناس على أن يأخذوا أمره مأخذ الجد . ولذلك يصلح «الارهاق بالعمل» أن يكون أحيانا ضربا من العذر أو الكذب الاجتماعي . ويجدر بنا أن نشير الى أن مثل هذا العذر يفضل غيره من الأعذار ، لأنه أقرب الى القبول ، وهذا يلقى ضوءا كاشفا على حقيقة الحياة في المجتمع الحديث .

هـ : الحياة الاجتماعية في الوقت الحاضر ، زيادة عدد المعارف والمواظبة

من المشاهد في المدن الكبيرة أن كل شخص ينتمي الى عدد كبير من الهيئات الاجتماعية . ويلاحظ أيضا وجود اتجاه قوى نحو فرض القيود الاجتماعية بسبب اتفاق الناس في حاجات معينة في وقت واحد كالحاجة الى مشاهدة التليفزيون ، والى زيارة الريف والى مشاهدة الافلام وكل ذلك في وقت واحد .. وعندما يحاول المرء تنظيم أي ضرب من الحياة الاجتماعية لنفسه (حتى ولو كان ذلك مجرد عقد اجتماع من أفراد متفرقين) فان قواعد المواظبة يجب احترامها لسببين بسيطين : ذلك أن كل شخص يرتبط بطائفة من الالتزامات التى يتعين عليه الوفاء بها . ولذلك فهو لا يستطيع أن ينتظر طويلا ريثما يحضر غيره . ولذلك اذا حرصت قلة من الناس على المواظبة كان ذلك كافيا لحمل الجماعة كلها على مراعاتها ، ولما كان كل فرد ينتمى الى طائفة من الهيئات والنوادى التى يسودها جميعا الاهتمام بالمواظبة فمن المحقق أن الجماعة المشار اليها سوف تحرص على الاهتمام بها . ومن المهم أن نؤكد مايدعيه الناس كثيرا من أنهم « مشغولون جدا » بالتزاماتهم المختلفة . ان زيارة ناد خاص ، ثم زيارة هيئة خاصة، ثم زيارة جمعية خاصة، كل ذلك يفرض على الانسان أن يحدد مواعيد زياراته مقدما حتى يتسنى له حضور كل اجتماع على حدة ، وحتى لا يقضى فى كل منها من الوقت أكثر مما يتفق مع التزاماته الاجتماعية الأخرى . والهيئة أيضا تفهم أن أعضاءها «مشغولون» فتترتب اجتماعاتها على فترات متباعدة حتى تضمن حضور عدد كاف من الاعضاء . واذا تم تنظيم مواعيد اجتماعات ، كأن يعقد — مثلا — اجتماع فى كل شهر أو شهرين — فان الجماعة تأخذ فى تنظيم نفسها ، ويتسنى لأعضائها أن يرتبوا أنفسهم مقدما لحضور هذه الاجتماعات . ومن هنا نرى أن الدقة فى تحديد المواعيد شرط من شروط الحضور . ولا ريب أن مثل هذه النظم الجماعية خير من الفوضى التي

قد تنجم عن الاختبارات المتعارضة • فاذا أجمع النـاس على مشاهدة التليفزيون فى المساء لم يكن ثمة مناص سـوى اللجوء الى البوليس لمنع الأضرار التى قد تنجم عن هذا « العمل الجماعى » ، واذا ما خالف المجتمع الآداب والنظم الاجتماعية كان ذلك ايذانا بزواله• فالدقة فى مراعاة المواعيد هىعماد المجتمع، لأنها تسمح لكل فرد بأن ينظم حياته بمـا يتفق مع المطالب الجمـاعية والالتزامات التعاقدية فى المجتمع • ان المواظبة معناها أن تعتقد أن أصدقاءك لا يريدون أن يتكبدوا عناء الانتظار ، فهى نوع من احترام الآخرين • وليس ثمـة ما هو أشد مضاضة على النفس من أن يرى المرء غيره غير مكترث بمـا يتجرعه من غصص الانتظار • ان ذلك قد يعنى أنك تشـك فى صواب تقديره• ومن هنـا يتضح أن المواظبة ضرورة وفضيلة فى وقت معـا • اننا نتخذ المواظبة معيارا للحكم على الناس فى كل مكان وفى كل الأوساط • ولا ريب أن هناك قليلا من الناس لا تعنيهم المواظبة ، ولكن هؤلاء الناس يعيشون بلا ريب خارج نطاق المجتمع الحاضر ، غير متأثرين بعواطفه ، ولا بنظمه ولا بتقدمه الفنى الذى يقوده نحو غاية لا يعرف الانسان كنهها على وجه اليقين •

و : خاتمة القسم الأول : الزمن باعتباره عقبة من العقبات

يعتبر الزمن عقبة رئيسية فى سبيل أمانى الانسان ، وعائقا يحول دون تحقيق رغباته وآماله التى لا تنتهى • واذا كان الانسان يصبو الى الثقافة ، أو يريد الانقطاع الى ممارسة الرياضة ، أو القيام بالرحلات ، أو يحلم بممارسة مهنة ذات مكانة كبيرة أو يفخر بالهيئات التى يتردد عليها أو بكثرة الأصدقاء فان جميع هذه الآمال والأحلام والرغبات تصطدم بعائق واحد هو الزمن • لم يعد الناس الآن يتحدثون عن العقبات المادية ، فوسائل النقل قد الغت المسافات التى لم يعد لها الآن وجود الا فى عالم الخيال ، والتكنولوجيا قد سيطرت على الظواهر الطبيعية فالليل قد انجلت غياهبه أمام نور الـكهرباء ، والوزن قد خففت منه الطائرات ، وأمراض الانسـان النفسية أخذت تختفى ، بعد أن أفلح الاخصائيون فى تنشيط قوة خياله • وصار من الممكن اثارة الشهوة الجنسية المكبوتة ، واثارة الميول الكامنة فى أعماق النفس الانسانية ، وايجاد الكثير من الحوافز التى تدفع الى العمل • ان الثروة والثقافة والمنزلة الرفيعة والسعادة والمحبـة كل هذه الـكلمات تزمز الى عالم الاعلان الذى يمـد عالم الحقيقة بأفكاره الراسخة (راجع هنرى ليفبر) ، ولـكن الزمن ـ ذلك الحاجز ، والحائط ، والعائق ـ لا يزال قائمـا • كل عمل يحتاج الى زمن ، وليس فى وسع الانسـان أن يؤدى عملين فى وقت واحد • ان المشروعات تتغير ، والأفكار الأولية تتعدل، والبداية لا تشبه النهاية • ان دقة المواعيد تهدف الى محالفة الزمن والافادة منه • انها تهدف الى ايجاد نوع من النظام فى الحياة بتنظيم مسار أوجه النشاط فيها • ربما كان هذا وهما من الأوهام التى لا يتسنى تحقيقها • والذى علينا الآن هو بيان آثار المواظبة فى نواحى الحياة المختلفة ••

ثانيا : بعض آثار المواظبة فى الحياة اليومية

ان الاهتمام بالمواظبة يتجلى من الناحية العملية فى رجوع الانسان الى الساعة لمعرفة الزمن ، وفى تبرمه بالانتظار الذى لا داعى له ، وفى شعوره بضرورة انتهاء كل عمل فى وقت محدد يجب ألا يتجاوزه الا لأسباب قهرية • والميزة الخاصة بالزمن الذى نعيش فيه هى أنه تجاوز الميادين التى كان فيها ضروريا - أى ميدان الحياة المهنية - وغزا تلك المجالات التى كانت خاضعة لحكم الظروف والخيال وحرية العمل كوقت الفراغ مثلا الذى سيصبح من مفاهيم علم الاجتماع كلما فقد بالتدريج حقيقته الانسانية • ولذلك نريد أن نحلل الآثار الملموسة للمواظبة فى كل ميدان عظيم من ميادين النشاط الانسانى • وليس فى وسعنا أن نقدم تحليلا يتسم بالعمق والدقة، لأن الميادين التى يجب البحث فيها كثيرة جدا •

أ : الحياة المهنية ، تضاعف الأعمال بطريقة هندسية

ان طلب المواظبة له هدف اساسى لا نزاع فيه ، وهو تحرير الوقت الضائع فى الانتظار الذى لا ضرورة له ولابد من القضاء عليه• وهذا الوقت الذى يتم تحريره يسمح للانسان بالقيام بأعمال أكثر مما كان يقوم به من قبل فى وقت مماثل من الزمن• ومن ثم يستطيع الانسان أن يزيد من معدل العمل الذي يتم انجازه في كل يوم • وهذه الزيادة فى عدد الأعمال المنجزة تعنى أن انفاق الوقت يجب أن يخضع لحساب دقيق حتى يتسنى مواجهة العبء الجديد ، وهذا من شأنه أن يحرر مزيدا من الوقت يمكن استخدامه فى انجاز المزيد من الأعمال • ومن ذلك يتضح أن العملية دورية وثابتة • وقد يتصور الانسان بالطبع أنه يمكن استخدام الوقت الذى يتم تحريره على هذا النحو فى التأمل أو الراحة • ولكن هذا التصور يتعارض مع الاتجاه المزدوج « للمجتمع الصناعى » على المستوى الشخصى والمستوى الاجتماعى • فعلى المستوى الشخصى نلاحظ أن الرغبة فى المزيد من الأجر تحفز الناس الى التعجيل بعملية تحرير الوقت واستخدامه فى وجوه جديدة ، لأن هذا من شأنه أن يزيد من الدخل باستمرار • وعلى المستوى الاجتماعى أو الجماعى نلاحظ أن التنمية الاقتصادية لا تتسنى الا بارتفاع معدل الأداء وزيادة الانتاج الكلى دون تغيير فى ساعات العمل • وبعبارة أخرى أن ترشيد الوقت لا يحرر الزمن الا لاستهلاكه فى أداء أعمال جديدة تتطلب اهتماما وتفكيرا وفهما للآلات • ويجدر بنا أن نلاحظ أيضا أن زيادة الانتاج تعتبر عملا وطنيا حتميا سواء فى الاتحاد السوفيتى « ستخانوف » أو فى الولايات المتحدة (تيلور وغيره) ولذلك فان استعمال الوقت الذى يتم تحريره لأغراض شخصية دون نظر الى المصالح القومية يعد سلوكا منافيا للوطنية • وفضلا عن ذلك يجدر بنا أن نلاحظ أن يوم العمل بالنسبة للرجال الذين يوجدون فى مواقع المسئولية أطول بكثير من ساعات العمل الرسمية فى الدواوين والمصانع ، اذ يجب

أولا اعداد العمل الذى يجب توزيعه أو مراجعته ، كما يجب على المهندسين أن يفكروا في مدى التقدم الذى يمكن احرازه بمعاونة مجموعة الرجال والآلات بحيث يمكن الاستفادة من كل دقيقة فى كل ساعة • ويجب على الاداريين تبسيط الاستمارات التي يجب ملؤها ، وهذا من شأنه زيادة عدد الاستمارات فى كل ملف دون اثارة غضب الجمهور • ونشاهد فى كل مكان اتجاها عاما بين الشعب العامل نحو تقصير ساعات يوم العمل • ولذلك اذا أردنا الاحتفاظ بمستوى الانتاج على الأقل، أو زيادته اذا أمكن ، وجب التفكير بدقة فى وضع سياسة تهدف الى جعل الوقت الذى يتم انفاقه أكثر انتاجا أى انفاقه بطريقة أكثر كثافة وتركيزا ، ومراجعته بدقة ، وشغله بطريقة أكمل وأوفى وذلك بتحاشى الأعمال الثانوية غير الضرورية • وهذا عامل جديد يؤيد ضرورة أن تكون المواظبة ودقة المواعيد صفة مهنية عامة • ان معدل العمل الذى ينجزه الانسان ـ سواء كان ضاربا على الآلة الكاتبة ، أو عاملا ماهرا ، أو مهندسا ـ هو فضيلة يمجدها المجتمع الحديث ، بصفة خاصة وبحق • ان هذا المعدل معناه اداء المزيد من العمل فى وقت متساو • وهذا القول فى غاية الوضوح ولايحتاج الى مزيد بيان • وهناك مشكلة رئيسية فى كل ذلك وهى أن المواظبة قد تكون وسيلة لاثراء شخصية الانسان لأنه يستطيع أن يشتغل بكثير من الأعمال المختلفة ، ويتجاوز الحدود الضيقة لمجال اختصاصه، ويكتشف مجالات جديدة وعجيبة فى العالم، فينتقل من عمل الى آخر وهكذا • فأما من الناحية النظرية فانه يتعين علينا أن نعترف بفائدة المزيد من الأعمال المحتملة الناشئة عن ذلك التحديد الدقيق للوقت الذى يمكن الانسان من النهوض بالواجبات الحتمية التى تفرضها عليه حالته الاقتصادية • وأما من الناحية العملية فان هذه الاحتمالات لا تتحقق أبدا فى الحياة الواقعية • ذلك بأن هامش الوقت الذى تحرره التكنولوجيا والحساب لا يستخدم الا فى زيادة تنمية التكنولوجيا والحساب ، بل ان هذا الوقت « خارج ساعات العمل الرسمية » لا يعتبر وقتا خاليا لأن الاستجمام واسترداد النشاط يجب أن يخصم منه لأن ذلك ضرورى لصيانة الآلة البشرية ومنعها من الانهيار • والتدريب المهنى يجب أيضا خصمه • وكل ذلك يتم توجيهه نحو النشاط المهنى فى المستقبل • وكذلك يجب خصم الوقت اللازم للاجتماعات والمواعيد التى تتطلبها بعض المهن (كمهنة الكاتب مثلا) ومن ذلك يتضح أن هامش الوقت الذى يتبقى بعد ذلك بالفعل ويستطيع الانسان أن يتصرف فيه بحرية هو وقت ضئيل جدا • وهذا يفسر لنا السبب فى أن هذا الوقت يستخدم بشىء من التقتير والدقة والاقتصاد • وهنا أيضا يتحكم مبدأ الدقة فى تحديد المواعيد فهذا المبدأ الذى أصبح الآن من المبادىء الجوهرية يقوم فى الوقت نفسه بفحص مضمون الأعمال القليلة الفائدة وهدفها • وليست العبرة بالهدف من العمل ولا بالطريقة التى يعالج بها ولابالمجهود الذى يبذل فيه ولابالنتائج الناشئة عنه وانما العبرة بتخفيض الوقت الذى ينفق عليه الى أدنى حد ممكن • وهذا الوقت يتم

تخفيضه باستمرار بفضل التقدم الفني". ان علم دراسة العمل — وهو ليس الا صورة لهذا الاتجاه — يهتم أساسا بالوقت ولا يهتم كثيرا بنواحي النشاط الانساني التي لا يمكن قياسها . ولذلك نجد الاهتمام يكاد يكون منصبا على عنصر الوقت ، وهذا أمر جديد وغريب ومدهش . ان أعمالنا الجديدة قد لا تكون لها أهمية على الاطلاق ، والميل الى حساب الوقت في كل زمان ومكان قد يوصف بأنه عمل صبياني (اذا أخذنا بكلام سومبارت في خاتمة كتابه «البورجوازي») ولكن ذلك لن يزيد الا من دهشتنا لأن هذا الميل يسيطر على حياتنا لا في حدود حياتنا المهنية فحسب بل أيضا في وقت فراغنا ، وفي حياتنا العاطفية وفي ادراكنا لما يجري حولنا في حياتنا السياسية بل في عقائدنا التي لا تقبل المناقشة".

ب : تنظيم وقت الفراغ

لعل أبسط تعريف للفراغ هو انه صنو اللعب . واللعب هو نشاط تقليدي يجمع عددا من الاشخاص طبقا لقواعد رسمية بهدف التماس اللذة من هذا النشاط (كما يقول ج . هويزنجا في كتابه « هومولودنز ») . والواقع أن مبدأ التصوير الشمسي والاجازات يمكن ان يندرج تحت هذا التعريف . ويطول بنا الحديث اذا اردنا أن نثبت صحة هذا القول في كل حالة . ولا شك أن مبدأ تحديد المواعيد والمواظبة قائم في فكرة اللعب منذ البداية نظرا لان هذه الفكرة تتضمن وجود بداية ونهاية كما تقتضي التمييز بين عالم اللعب ، وعالم الحياة اليومية . ولكن هذا المبدأ من الناحية التقليدية ينتهي بنا الى استنكار حب اللعب لذاته ، فيعدل مبادئه ويغير من مضمونه . ان الالعاب اعمال غير هادفة بمعنى انه لا هدف ولا غاية لها لان الناس يمارسونها اقتناصا للذة دون نظر الى الحصول على فائدة مادية . ولكن مبدأ المواظبة يخصص جزءا من الوقت لكل عمل من الاعمال المختلفة طبقا لاهميته الخاصة . ولذلك فان العقلية الحديثة تنكر اللعب . وعلى اللعب أن يلتمس لنفسه مبررا في كل الاوقات . وأول طراز من المبررات هو « تكوين الشخصية » أو اثراء حياة الانسان عن طريق القراءة والرحلات والتمثيليات والافلام الخ . وهذا المبرر يميز بين الفراغ النافع والايجابي والخصيب ، وبين الفراغ السلبي واضاعة الوقت وافقار الشخصية (راجع ج دومازدييه) . ولكن هذا الفراغ الجاد الذي يتفق مع آمال المجتمع — وهو فراغ يدعو الى الملل ويثير الضحك — لا يتفق بالضرورة مع صميم الحرية التي تتلخص في الاختيار الارادي والهروب من عالم المنافع المادية ، والاشتغال بعمل يختاره الانسان بمحض ارادته لا لقيمته الاقتصادية بل لاسباب ذاتية يتجلى فيها الميل الشخصي . ولا شك ان مبدأ المواظبة وتحديد المواعيد حين يسعى لالغاء كل امر غير هادف أو غير مفيد يتعارض بحكم طبيعته الاجتماعية مع جوهر الفراغ . اضف الى ذلك غريزة حب الاستطلاع القوية عند الانسان الحديث ،

فهو حين يصل الى بلد غريب يجب أن يشاهد كل شيء ، ويعرف كل شيء ويزور جميع المعالم التى يرد ذكرها فى الدليل السياحى ويجمع بطاقات البريد والتذكارات الخ ولذلك يتم تنظيم السياحة فى أيامنا هذه ، وتوضع لها مواعيد محددة بدقة وتخصص الاوقات بطريقة منظمة : المدة التى يقضيها السائح أمام المعلم السياحى الذى يزوره ، ومواعيد السفر ، ثم السهرات . ويلاحظ أن هذا الحساب الدقيق للوقت يمنع الانسان من معرفة البلاد التى يزورها معرفة حقيقية . وهذه المعرفة تستلزم ساعات طويلة يقضيها السائح فى المشى حول « المدينة القديمة » ليكون فكرة عن الحياة فى العصور الوسطى ، أو يقضيها فى فحص جميع التماثيل التى يزدان بها المكان ، والرموز المختلفة للعواطف الدينية ، كل هذا مستحيل اليوم .

ولما كان الفراغ وسيلة لالتماس المتعة ، سواء عن طريق تحفة فنية أو قصة طويلة أو قصيدة شعرية او قطعة موسيقية او فيلم ، فانه يقتضى أن يقبل المرء بكليته عليه ، وينسى الظروف المادية للحياة اليومية ، ويسمو بروحه عن طريق الفن . ولكن عندما يتدخل مبدأ تحديد المواعيد فى موقف يتطلب الهدوء وراحة البال والانطلاق فانه يقضى على صميم المتعة ، ولا يدع منها الا القشور والمظهر و «الرأى».
ومن المهم أن نلاحظ الدور الذى يقوم به الحديث أو المناقشة فى مجال الفن أو العمارة أو الموسيقى فهذا الحديث يحل محل المشاهدة الحسية . وهذا أمر مفهوم لان فن البلاغة يمكن أن يخضع لقواعد المواظبة . اننا نجد ان المتعة الفنية ليست وقفا على « الطبقات المثقفة » — كما يدعى البورجوازيون — لان هذه المتعة اتخذت اشكالا مثل المهرجانات والمسرحيات التى استمدت موضوعاتها من الكتاب المقدس ومثلت أمام الكاتدرائية ، والحفلات التنكرية والانفعالات الجماعية ذات المظهر الدينى وكانت كل هذه الاشكال شائعة فى أوربا ابان العصور الوسطى . كل ذلك حلت محله الالعاب الرياضية . واذا كانت هذه الالعاب تجرى بروح المسابقة فهى قبل كل شيء وسيلة لنيل الشرف والمجد ، والتسامى بالمنازعات المحلية والعنصرية والقومية . وهى الآن اداة فى يد الدولة ووسيلة للاعلان عن المتاجر الكبرى ولم تعد هذه الالعاب ضربا من اللذة يلتمسها الناس لذاتها . والدور الذى تقوم به الالعاب الرياضية فى وقت الفراغ فى العصر الحديث هو رمز لدخول المواظبة فى لذات الناس ومتعهم فى العصر الحاضر وبخاصة لان الناس يهتمون أساسا بنتيجة المباراة لا باجتماع الفريقين المتبارين ، ويهتمون بتسجيل الحدث لا بمتعة القفز والجرى . وأيضا لان البيولوجيا والطب والصيدلة تستخدم بصورة كاملة لتحقيق نتائج طيبة « فى الظاهر » . وقد أصبحت الرياضة صناعة خطيرة ورابحة ، وتجرد الفراغ من طابعه الاصلى .

ومن الامور ذات المغزى أن الرياضة هى أكثر المتع شيوعا فى العالم ، وقد أضفت على المواظبة الوانا جديدة من الفتنة والجاذبية ، لقد اختفى اللعب بمعناه

الاساسي فهل هذا امر لا يمكن الغاؤه ؟ لا ريب أن هذه الظاهرة تمت بصلة الى تطور العلاقات الاجتماعية نتيجة المواظبة .

ب : مسرحية عدم الاتصال ، العقبات التي تحول دون تعارف الناس .

عندما يقابل الناس بعضهم بعضا ، يجب ان يكون لهذه المقابلة مضمون ويجب أن تنقل الاحاديث التي تدور بينهم أفكارا أو نيات أو انطباعات أو أسئلة أو استطلاعا أو تجربة من كلا الجانبين . وصفوة القول أن الاتصال بين شخصين لا يمكن أن يقوم بدون ان تكون هناك مادة تدعم العواطف التي تتولد بينهما او تنمو او تتحول . ان الانسان لا يتصور ان تقوم علاقة شكلية محضة . ولكن لكي يتسنى نقل هذا المضمون بطريق العبارات أو الاشارات أو النظرات يجب ان يتذرع الناس بالصبر أو يظهروا الاهتمام بغيرهم ، وبعبارة اخرى يجب أن يطول التعارف فترة كبيرة من الزمن . ومن ناحيــة أخرى نجد أن العــلاقات بين الناس لا تثبت على حال ، فقـد تنشأ بينهم أزمة ثقـة ، وقد يسوء التفـاهم بينهم ، وقد تتعـارض رغباتهم ، وهـكذا . وليس ثمة علاقة عاطفية لا تتأثر بصروف الزمن ، فقد يكون الزمن مواتيا فتنمو هذه العلاقة ويحالفها طالع السعد ، وقد يتنكر لها الزمان ، فيقتلها في المهد . ونلاحظ ان المواظبة التي تبدو أمرا لابد منه ليست مستحبة دائما في مثل هذه العلاقة . فلا شيء يعكر صفو العلاقة بين الصديقين ، وينغص عليهما لذة اللقاء الذي يتم اتفاقا أو فجـأة أو على غير انتظار مثـل المواعيد المحددة التي تجلب السـأمة والملل . ولا شك أنه اذا عرف احد الحبيبين أنه يتحتم عليه ان يزور حبيبه كل يوم من أيام الاجازات كان ذلك داعيا لان يقتل في نفسه أي لذة في لقائه . وحتى اذا توثقت عرى المودة بينهما فان المواظبة من شأنها أن تجعل العلاقة بينها قائمة على الكلفة والنفاق لان كلا منهما يخفي عن زميله ما يشعر به من الملل والضجر في لقائه .. والعاطفة أيا كان لونها من شـأنها أن تنسي المرء ما يدور حوله من أحوال البيئـة التي يعيش فيها كما تنسيه ضرورات الحياة ومشاكلها وأحوالها المادية حينا من الزمن ، وذلك لانه يعيش بالقرب من حبيبه . اما المواظبة فانها تبعث في هذا اللقاء الشعور بهموم الحياة وضروراتها . ذلك أن كل انسان يواظب على أن ينظر الى ساعته لا يمكن أن يوجه اهتمـــامه الى صديقه في الوقت نفســه . أن قيامه بالامرين من شـأنه أن يجعل فؤاده موزعا بين أمرين متعارضين يتصارعان في أعماق نفسه . فالمواظبة تبرر نفسها بالرغبة في رؤية « عدة » أشخاص في اليوم الواحد لكي يتسنى للانسان الوفاء بمواعيده المتعددة ، وهذا من شأنه أن يجعل من المتعذر عليه أن يفكر في شخص واحد أكثر من غيره . ولما كانت الذاكرة هي البديل من العاطفة ، فان العاطفة لا يهمها أن تبقى في حياة تعاني من الزحام . وقد ترتب على ذلك انعدام العاطفة بصورة عجيبة في العلاقات الحديثة . ومن المفيد أن نقارن ذلك على سبيل المثال بما تموج به روايات بلزاك من العواطف . ففي القرن التـاسع عشر كان لدى سيدات المجتمع الراقي متسع من

الوقت للتفكير في المعجبين بهن . وهذا يفسر لنا رقة احساسهن، وخيالهن الرومانتيكي ومكايدهن التي كانت أكثر حذقا ومهارة وتعقدا من مكايد النساء في الوقت الحاضر .
وكانت المغازلة ـ في التحليل الاخير ـ ضربا من « اللعب الاجتماعي » (ج . هويزنجا) ولكي يتسنى للانسان أن يلعب ينبغي ان يكون لديه استعداد وميل معين ، وكذلك متسع كبير من الوقت . ومن هنا نشاهد الآن تطور العلاقات العاطفية ، اذ يقنع الشباب الآن بتبادل المودة بصفة سطحية وعابرة ويسمونها « صداقة » وهي كلمة يجب أن تفهم بمعناها السلبي أي انعدام الحب وهذا هو المعنى العادي الذي تستعمل به كلمة الصداقة في اغلب الاحيان . والناس يتبادلون الحب والوداد بطبيعة الحال، ولكنهم يفعلون ذلك بسرعة فائقة . ذلك أن زمن اللقاء قصير جدا لدرجة انهم يضطرون الى اظهار الرغبة في الأحاديث الودية ، ويصطنعون المودة « والظرف » بلا تردد . ولعل فرانسواز ساجان هي خير من يمثل هذا التطور الجديد في السلوك بسبب ضيق الوقت والرغبة في عدم ضياعه أعني بسبب الحرص على المواظبة . أن فرانسواز ساجان هي معشوقة قلوب الرجال ، والرجال هم مهوى فؤادها . ولما لم يكن لدى الناس متسع من الوقت ليتصل بعضهم ببعض ، ولما كان هذا الاتصال يتطلب قدرا من الذكاء والدهاء، فانهم يقنعون بالاشتراك في حفلات صاخبة تدور على نغمات أوركسترا حديثة ، حفلات تدور فيها كؤوس الشراب ، ويغيب فيها الوعي على انغام الموسيقى ويتخبط الناس في موجة من الاشارات والحركات والصيحات .
كل هذا معروف جيدا ويتم تحليله بعناية . ذلك أن فلسفة عدم الاتصال التي هي اقرب الى ان تكون فرضا من ان تكون فلسفة حقيقية انما هي مثل لهذا التحول في السلوك . ومن الغريب أن هذا الموضوع قد اصبح الآن جزءا من الميتافيزيقا اليومية وكأن الناس قد أخذوا يشعرون بعمق حقيقته . ومن المحتمل أن يكون الحرص على المواظبة هو السبب الكامن وراء عدم اتصال بعضهم ببعض، وان كانت المواظبة نفسها ناشئة عن عوامل مختلفة ، ولذلك فلا تعود هي السبب الوحيد .

د : ادراك الحقيقة وتأثير المواظبة

يمكن القول من الناحية النظرية أن المواظبة وتحديد المواعيد يسمحان للانسان بأن يصور تطور حدث أو سلسلة من الاحداث بأنه اطوار متعاقبة يعرف نظامها ومدتها النسبية . وقد تم تطبيق هذا الادراك الهندسي للزمن على حركات المجتمع الواسعة النطاق . ولا ريب أن تغيرات الظواهر الانسانية في التاريخ ـ كتغيرات معدل المواليد في أمة ما أو أخلاق هذه الامة ـ تخضع فيما يبدو لانماط منتظمة معينة تختلف طبقا لما نشاهده . ومن مجموع هذه الانماط يتكون ما يوصف بأنه « مجرى التاريخ » (راجع مؤلفات ج . بوتهول بشأن الديناميكية الاجتماعية) ومن الامور التي تثير الاهتمام أن نجد هذه الانماط ماثلة في تكرار ظواهر متشابهة تحدث في تواريخ معينة ، أو ماثلة في التعاقب المنتظم للوقت الذي تستغرقه مراحل تطور معين

وكل ذلك يؤكد ميتافيزيقا الزمن الذى يتم ترشيده بطريقة هندسية . ومن هنا . ـ وعلى سبيل المثال ـ تحدثنا التقاويم عن عودة أعياد دورية ، وعن احتفالات وذكريات توضح أن الزمن قد أتم دورة كاملة ، وأنه يبدأ من جديد ، وهذا يتفق تماما ـ بالطبع ـ مع فكرة المواظبة والتحديد العلمى للتواريخ والمواقيت . ومن ناحية أخرى يسود الاعتقاد بأن التاريخ يسرع فى حركته . وآية ذلك قصر مدة الظواهر التاريخية كالاجيال الثلاثة التى استغرقتها آلات الصاروخ العابر للقارات ثم ازدياد عدد الظواهر التى يمكن ملاحظتها فى وقت واحد . وحسبك أن تطالع الصحف فتجدها حافلة بالكوارث والانباء المثيرة ، والحوادث الغريبة . ثم ان المسار العام لتقدم يجرى الآن بسرعة ولذلك نتقدم نحو الشيخوخة بخطى أسرع . ويقال أن الاختلاف بين عالم١٩٥٠ وعالم١٩٦٠ أكثر ـ بوجه عام ـ مما كان بين عالم١٨٨٠ وعالم ١٩١٠، كل هذا يدلنا بلا شك على أن التاريخ يتحرك فى الوقت الحاضر الى الامام بخطى أسرع من جميع الظواهر التى يمكن لنا ملاحظتها وانك لتجد أن أقصى درجة من التغير تحدث فى كل ثانية من الثوانى ولذلك لا نرى معالم على الطريق نهتدى بها ولا نجد معايير ثابتة للحكم على الاحداث المتغيرة ، بل لا نجد وسيلة لمعرفة كنه الحاضر الذى نعيش فيه لانه سرعان ما يصبح فى خبر كان . وحينئذ يصبح ادراكنا لحقيقة الحاضر اما ادراكا خاطفا واما ادراكا عاطفيا ، وهذا يتوقف على شخصية الانسان . ذلك أن بعض الناس يذهب الى أن المجتمع نفسه ، بوصفه كيانا ثابتا نسبيا يشتمل على العلاقات الانسانية الثابتة كالعادات والعلاقات المهنية ، والروابط العائلية الخ ، لم يعد له وجود ، وأن المواظبة وتحديد المواعيد قد اصبحا هما المرجع الممكن الوحيد ، وهما الامر الثابت الوحيد ، ولكنه أمر ثابت شكلى لا يستطيع السيطرة على الحركة البراونية للمجتمع . ويذهب البعض الآخر الى أن العصر الذى نعيش فيه عصر عجيب حقا ، يحطم كل الروابط والعلاقات ، ويجعل الكائنات البشرية والاشياء والاذواق والافكار فى حالة تغير شامل . وان الآمال المشرقة التى يبشر بها المستقبل لتكفى لحمل الانسان على التخلى عن التشاؤم الاخرق الذى يشعر به المتشككون . ويلاحظ أن هذين المعسكرين أو المذهبين يتفقان فى النهاية فى ادراكهما لحقيقة الحاضر ولكنهما يصدران احكاماوتكهنات متناقضةبشأنه . وهنا نجد ـ مرة أخرى ـ ذلك الانفصال والاتصال ـ الذى سبق أن حللناه ـ بين مبدأ السرعة الذى يؤدى الى نفى كل ثبات أو رتابة أو عبودية للزمن وبين المواظبة التى هى هذه العبودية . وقد رأينا أن ثمة صلة منطقية بين الامرين . وآية ذلك انك تسافر بسرعة حتى يتسنى لك أن تصل فى الميعاد أو لا تتأخر عنه . وهنا ـ أيضا ـ يحق لنا أن نقول يجب على الانسان أن يسير بسير زمانه اما ليتابع تطوره ، واما لينساق فى تياره دون أن يتخلف والويل لمن لا يساير الزمن . ولا يهمنا كثيرا أن نقول أن التاريخ يسير بسرعة فى واقع الامر ، فالناس يؤمنون جميعا بسرعة تغيراته . واذا لم يكن فى وسع المرء أن يعيش بمعزل عن المجتمع فمن الواجب عليه أن يشارك فى معتقداته ولو ظاهريا على

الاقل . لقد أصبحت المواظبة اليوم القاعدة العامة عند كل انسان ، بل أصبحت هى القانون (ف . هتمان فى كتابه بعنوان L'Europe de l'abondance) . والمواظبة بمقتضى تعريفها يجب أن تنظم كل ضرب من ضروب النشاط ، لأن صحة الانسان فى المجتمع تتوقف على الخضوع لها . وفضلا من ذلك ، فان الناس يتصورون أن حقيقة الحاضر كلها انما هى تكرار لاحداث ثابتة، فالثورات تنتشر عدواها بالتقاليد وبدافع الرغبة فى تكرار ما حدث ، والدول يقلد بعضها بعضا فى النظم والتكنولوجيا وشكل الحكومة . والتاريخ - على هذا الرأى - ليس سوى تقليد متواصل لاهل الخلق والابتكار . وهذا معناه أن هناك انماطا محددة ثابتة ، وأن كل لحظة ما هى الا تكرار معدل للحظة السابقة عليها . ومع ان م . فبر يعارض فلسفة التاريخ هذه ، فان هذه الفلسفة هى الرأى السائد بقوة ، ذلك أن المواظبة تنكر الصدفة فى التاريخ ، وتنكر الفكرة القائلة بأن الحوادث التاريخية فريدة فى بابها كما تنكر الابتكار فى أى مرحلة من مراحل التاريخ .

هـ : عالم السياسة : الاستعجال ، والتكرار ، واستراتيجيات الزمن

السياسة فى جوهرها تتيح الفرصة للمواجهة والاتحاد والسيطرة ، وللعلاقات بين القوى غير المتكافئة - معادية كانت أم متحالفة - طبقا للظروف العارضة التى يسعى فيها الانسان الى فائدة دائمة تمكنه من بلوغ أهداف معينة . وتحليل العلاقات بين القوى فى نطاق « معسكر » قومى أو دولى معين ، وتحليل قيام الدول وسقوطها ، ليدخل فى صميم الموضوعات التى يعالجها علم السياسة (راجع كتاب جوهر السياسة لجوليان فروند ، وهو كتاب غزير المادة برغم ما تتسم به أقوال المؤلف من طابع التعميم) . وفى نطاق هذا المعسكر او النسيج من العلاقات يضع المتنبئون استراتيجيتهم : ويحسبون الهجوم والرد عليه ، ويدلون بالتهديدات ، والتهديدات المضادة ، ولا نغالى اذا قلنا أن الوقت له شأن كبير فى كل هذا . ونحن نعرف أولا أن سياسات الحكومات ليست سوى موازين للمسائل الملحة التى تتطلب النظر على وجه الاستعجال . صحيح أن كل مسألة تستحق الفحص والدراسة ، ولكن بعض المسائل لا تحتمل الانتظار اما لان الراى العام يضغط على السلطة التنفيذية ، واما لان الاخطار التى تحدق بالبلاد عاجلة داهمة ، واما لان تاخير البت فى المسألة يوما واحدا يزيد من صعوبة حلها . والمهم هو اقناع رجال السلطة بضرورة معالجة هذه المسألة واعطائها ما تستحقه من الاهتمام . وقد يوجد فريقان يؤيدان مذهبا عاما واحدا ، ولكنهما يختلفان على طابع الاستعجال للمسائل التى يجب معالجتها او على ترتيب اهميتها ، والعكس ايضا صحيح . ولكن العامل الحاسم فى فهم تصرفات الحكومة هو ترتيب أولوية المسائل التى يقع عليها الاختيار ، وهذا يفسر لنا ما نلاحظه من ردود الفعل والمبادرات التى تتخذها الحكومات . واليوم نرى رجال السياسة لا يعيش بعضهم بمعزل عن بعض ، بل يدخلون فى علاقات فيما بينهم كثيرا ما تكون علاقات صراع ، ويختلفون فى تقدير المسائل الملحة العاجلة، وهذا هو السبب الحقيقى

فيما ينشأ بينهم من سوء التفاهم وما يقعون فيه من خطأ ، وهو السبب ايضـــا فيما يلجأون اليه من تصحيح سياساتهم أو تعديلها . ويلاحظ أن موازين المسائل الملحة متغيرة غير ثابتة ، فهي تختلف باختلاف المواقف والظروف كما تعبر عن الحكم الشخصي على موقف هو بطبيعته غير مستقر وواضح . والامور المألوفة فى عالم السياسة مثل التصحيح والتقويم والتقريب والمناقشات والمنازعات والتعليقات ، والتعديلات هي التي تغذي المباحثات السياسية كما تغذي حياة الحكومات . ومن الضروري فى مثل هذه الاوقات مقاومة الازمات والانقلابات والتطورات المفاجئة كتخفيض قيمة العملة والتعديل التعسفي للتشريع حيث تكون سرعة الاجراءات شرطا لازما للنجاح. ذلك أن السيطرة على الزمن شرط من شروط النجاح السياسي . وهذا يصدق على الخطة التي يتخذ فيها الاجراء السياسي . وهنا يجب أن يكون الرجل السياسي قادرا على انتظار رد الفعل الذى يصدر عن خصمه ثم يرد عليه فى أنسب اللحظات ، وعلى سبيل المثال يجب أن تكون لديه المقدرة على اتخاذ مختلف القرارات التي تكون فى مجموعها السياسة الشاملة التي ينتهجها ، وذلك بالاضافة الى مقدرته على استخدام عنصر المفاجأة ، وبذلك يستطيع التنسيق بين العوامل المختلفة التي يساعد كل منها فى مجاله الخاص على تحقيق النتيجة الكلية . وهذا يصدق ايضا على المراحل التالية ، اذ يجب على السياسي أن يحتفظ بالسيطرة على نتائج تصرفاته ويواصل جهوده برغم ما يبدو من بوادر النجاح الاولية (التي هي اساس كثير من النكسات) واضعا نصب عينيه تحقيق هدفه المبدئي . ويجب ادماج هذا الهدف نفسه فى سياسة عامة طويلة الامد . والوقت اللازم لربط هاتين العمليتين ، تكييف الاهداف الفنية طبقا لظروف قد لا تكون فى الحسبان ، وسرعة هذا التكييف ، هو من خصائص الحنكة السياسية التي يتعلمها السياسيون بالغريزة . والتحديد الزمني الدقيق فى هذا المقام لا يخلو من الخطر لانه يدل على اغفال الظروف العملية ، وعلى الجمود الذى يعرض العمل السياسي للخطر ، وعلى التشبث بالناحية الشكلية أو الزمنية للعمل السياسي . ومن ثم يمكننا أن نقول أن ادخال المواظبة فى عالم السياسة يؤدي الى احداث تغييرات عميقة فيه ، ويجلب اخطارا على اعمال رجال السياسة . ويمكن – بالطبع – وضع برنامج زمني لعدد كبير من الشؤون العامة كالاعمال الجارية والمسائل الفنية التي يتولى الخبراء الفصل فيها كمشروع السنوات الخمس والميزانية وتحديد تاريخ لتكوين السوق المشتركة الزراعية. ويمكن الى حد كبير تسيير الادارة بوضع برنامج زمني دقيق لان المواجهة فى هذا المجال أقل أهمية من حسن التنفيذ عن طريق جهاز كفؤ ، وهذا ينطبق على الشؤون التي يغلب عليها الطابع الاقتصادي.

ويبقى بعد ذلك ميدان هام للاستراتيجية هو العمل على استخدام الوقت لمصلحة الانسان وفى وسعنا ان نتبين ثلاثة أنواع من الاستراتيجية : الاولى استراتيجية الانتظار الثنائي (أى الحرب الباردة) التي يصابر فيها أحد الطرفين الطرف الآخر حتى ينفد صبره ، ويسكن من مخاوفه وشكوكه على مر الزمن ، ويشعره بأنه لن

يضع تهديده موضع التنفيذ ، وان ظل هذا التهديد دائما على حافة التنفيذ فى اى وقت . هذه الاستراتيجية التى تهدف الى استنفاد صبر الخصم تنحصر بين حدين من أشكال السلوك : عدم الاقدام على المبادأة أو اتخاذ خطة الهجوم (وهو أمر قد لا يكون مقبولا من الناحية المعنوية) ، والخوف من ان يؤخذ الانسان على غرة دون أن يتسنى له استخدام ما لديه من امكانيات الانتقام . وهذه الاستراتيجية ترتكز أيضا على عدد من النظريات الرئيسية : نظرية السناريو بمختلف وجوهها الممكنة (هـ . كاهن) ونظرية التشبيط الوقائى (جال . بوفر) ونظرية الاتصال فى أوقات الازمات (س . آرون) ونظرية التدرج فى الانتقام (س . مكنمارا) . كل هـــــذه النظريات تعتمد اعتمادا كبيرا على سرعة رد الفعل عندوقوع الاعتداء كماتعتمد علىتنويع ضروب الهجوم التى يمكن تصورها ــ فورية أو متوالية ــ ولكن هذه الاستراتيجية تقوم ــ فى التحليل الاخير ــ على فلسفة اتخاذ الاجراء فى الوقت المناسب الذى يأمل فيــه الانســان أن يكون الزمن حليــف أحد الطرفين ، أى الطرف الاكثر مهــارة . والاستراتيجية الثانية هى وضع خطة دقيقة لنظام الدفاع (اذا تقرر الاخذ بذلك) تدخل في دور التنفيــذ في اللحظة التي يصدر فيها الامر بذلك دون نظر الى نيات العدو أو تصرفاته . وفى هذه الحالة يصبح التحديد الزمنى فى عملية تنفيــــذ الخطة أمرا ضروريا للغاية . وقد يتساءل المرء ما قيمــة هذه السياسة . انها تتعارض مع شعورنا باضطراب العلاقة بين الخصمين وترك الباب مفتوحا أمام احتمال اتفاق مؤقت على الاقل . وفى هذه الاستراتيجية يقوم الزمن بدور ثانوى جدا ، ففى النهاية ينتصر الطرف الذى يكون أكثر مثابرة ، واشد قوة ، وأعظم قدرة على مقاومة الهجوم . أما الاستراتيجية الثالثة فهى أن تكون الاعمال المتعاقبة خالية من المنطق ، وذلك لتعجيز العدو أو تصرفاته . وفي هــذه الحالة يصبح التحديد الزمنى في عملية تنفيذ الخطة وقته اذا أراد معرفة أهداف خصمه بالحدس والتخمين . وفى هذه الاستراتيجية تتجلى المفاجأة بأعظم مجاليها ما دامت السياسة تسير فى طريق ملتو بسرعة كبيرة دون هدف واضح ودون انتظام أو تنسيق . هنا يكون التحديد الزمنى والمواظبة أمــرا وخيم العاقبة ، وهذا ينبغى أن يقنعنا بأن الميدان السياسى الذى يتسم بطابع التقلب والغموض والاستقطاب وعدم الاستقطاب فى وقت معا ، والحكم الشخصى ، من شانه أن يتجرد من طابعه اذا خضع لقاعدة المواظبة وقد ادت المواظبة حتى الآن الى الفشل أكثر مما ادت الى النجاح فى هذا الميدان ان الزمن فى السياسة لا يسير على وتيرة واحدة فهو احيانا يكون سريعا وأحيانا يكون بطيئا ، وتارة يكون متوترا ومفاجئا ، وطورا يكون بطيئا بدرجة تدعو الى اليأس ، واذا أدخلنا فيه أنماطا محددة أخطأنا صفته الجوهرية . (انظر مقالى القادم بعنوان « روح الاستراتيجية والتوقيت المحسوب ») .

و : اسطورة المواظبة ، ضرورة المواظبة ، والآلام التى يجلبها الزمن على الجنس البشرى .

من الواضح أن أعمال البشر لا تتفق مع مبدأ المواظبة ولا تقبل هذا المبدأ الا باعتباره ضرورة من ضرورات الحياة الحاضرة • ولما كان من المسلم به أن المواظبة ضرورية فانها تحكم العلاقات الانسانية العامة• ألا يحتمل أن تكون هذه محاولة لربط أنفسنا بعجلة كرونوس ، اله الزمن ؟ ما أكثر الأساطير التى تحكيعن توقف الزمن لمصلحة البطل ، والتهام الزمن لأبنائه (كناية عن الهرم والموت اللذين لامرد لهما) ! وما أكثر القصائد التى تتحدث عن انقضاء الزمن وما أكثر الفلسفات التى تتحدث عن الأمور التى تمضى بلا عودة ، وتفقد بلا عوض ! وما أكثر الاساطير التى تحكى عن العودة الأبدية ، وربيع الشباب الذى ولى مدبرا فى ماضى الزمن ! يقول هيراقليتوس ان الله تعالى يوصف بأنه أزلى أبدى لا يحده الزمن الذى يغير أحوال الكائنات الحية ، ويبدل شؤون العالم • وقد عانى الانسان منذ نشأته كثيرا من داء الزمن ، وكانت أمنيته الوحيدة ، ولا تزال ، الشفاء من هذا الداء ، فهو يخشى أن تغتاله المنية على غرة ، لأنه يعلم أن كل ساعة تمر به تقربه من نهايته • والكون نفسه حافل بمظاهر الشيخوخة التى تعترى الكائنات بأسرها، فالأشجار تنمو باسقة ثم تموت، والحيوانات كذلك تلقى مصيرها المحتوم ،بل ان الجبال المكونة من صخور الجرانيت تتآكل بفعل الأمطار • وان دورات الطبيعة المتكررة ـ الفصول وأوجه القمر ـ لتحمل الانسان على تصور أنماط ثابتة فى الحياة ، فيحدد التواريخ ، ويضع التقاويم ، ويحاول أن يكشف النقاب عن سر هذه القوة الخفية القاهرة التى هى الزمن • ان المواظبة تعنى السيطرة على الزمن ، وتسخيره لأعمالنا ، واستخدامه فى أوجه نشاطنا وحل لغزه • وفوق ذلك يثير المستقبل مسائل غيبية بين الناس• هل أعيش حتى غد ؟ من ذا الذى يستطيع أن يخبرنى عن مصيرى بعد ثلاثة أشهر أو بعد عام ؟ ان كاهنة معبد دلفى التى هى الجد الأكبرلرجال التخطيط فىعصرنا الحاضر لم تكن أقل غموضا من المتنبئين فى هذه الأيام • واذا كنا لا نستطيع أن نميط اللثام عن لغز هذا المستقبل المخيف الذى يقض مضاجعنا ويتحدى عقولنا المتعطشة الى برد اليقين ، ففى وسعنا على الأقل أن نضع برامج تقيد هذا المستقبل وتستخدمه فى أعمالنا و «تزوده» بضروب مختلفة من النشاط ، وتزيد من معرفتنا بحقيقة أمره• ان كل عمل أو مشروع يعتبر ضربا من المراهنة على المستقبل لأنه ما من أحد يعرف على وجه اليقين نتائجه وآثاره وعواقبه • ولكى يكافح الانسان هذه الآلام التى يجلبها عليه الزمن تراه يلجأ الى وضع التقاويم

والخطط والبرامج التى ترسم خريطة المستقبل • ان عصرنا الحديث يعتقد أنه قد نجح فى ادماج المستقبل فى ميادين نشاطه • انه يعتقد أنه يستطيع السيطرة على الزمن الذى سيأتى به الغد ، وبهذه الوسيلة ينجو من حالته الحاضرة فما أعظم التناقض ! اننا نحسب المستقبل بدقة بحيث يشبه الحاضر الذى نريد الفرار منه • ترى هل علينا عصر المستقبل المجهول بعد أن تكشف لغزه ؟ ليس فى وسع كاتب هذا المقال أن يجازف بالاجابة على هذا السؤال •

الكاتب : ريمون ميلكا

ولد بالجزائر عام ١٩٤٧ • تخرج فى معهد الدراسات السياسية بباريس • يدرس القانون الآن وينوى التخصص فى البحوث الاجتماعية والسياسية• نشر عدة مقالات عن حياة الشباب ، ويعد الآن كتابا عن مشكلات الشباب ، ويقوم باعداد دراسة نقدية عن فكرة « التعقلية » (اتباع المذهب العقلى) فى محاضرة عن عمل جوليان فريند •

المترجم : الأستاذ امين محمود الشريف

خبير دائرة المعارف بمجمع البحوث الاسلامية ، ورئيس مشروع الألف كتاب سابقا •



بقلم : إدواردو جونز اليزلانوزا
ترجمة : فوزى سمعان

المقال فى كلمات

للجرأة جانب خير وجانب سىء ، فهى سلاح ذو حدين ، وقد لعبت الجرأة فى الفن القديم دورا هاما فى نشأة العلم الحديث ، ولا يزال التاريخ يذكر لنا ذلك الفنان الذائع الصيت الذى يعتبر بعد فرنسيس بيكون أول رواد العلم الحديث ليوناردو دافنشى ، وكشوفه العلمية الرائعة ، ولم يكن الدافع له الى ذلك الا رغبته فى اشباع هوايته الفنية . والجرأة ليست أكثر من حالة بيولوجية من السهل عليها أن تضع نفسها فى خدمة الأفضل والأسوأ على حد سواء ، أو فى خدمة الأخلاقى واللاأخلاقى . فالقدرة عند قديس تزيد من قدرته على الوصول الى السمو الروحى ، لكنها فى نفس لص تجره الى أسوأ أنواع الجرائم . وهذا ما يجرى فى الفن . فحينما توضع فى خدمة فنان عظيم فانه يدهشنا بما يتحقق من نتائج . أما الجرأة فى خدمة التفاهة فانها تجعلها واضحة ، وتكشف عن أوجه

سوقيتها وغلظتها . وللفنانين السوقيين غرض مزدوج فهم يبدأون بالسطح ثم الغوص فى الأعماق ، خالقين بذلك علاقة مبهمة ، مشابهة لتلك التى يستخدمها الشخص الذى يغرر بامرأة محاولا اشباع شهواته مع تجنب المخاطر الكامنة فى الحب الحقيقى .

ويتناول المقال مظاهر الجرأة غير الذاتية فى الفن المعاصر التى تتمثل فى نبذ الصور الماضية للفن، وسرقة الأفكار وازدراء التقاليد ونبذ شعار مطلع القرن ((الفن للفن)) واحلال صيغة أخرى محله هى ((الفن لمصلحة الفن)) . ومن رأى الكاتب أننا أمام جرأة منظمة بالغة الانتماء ، وأننا وصلنا الى لحظة يحق لنا أن نسأل أنفسنا فيها : هل الاقدام على فعل ما لم يجسر أحد غيرنا على فعله يستحق أن يسمى جرأة واقداما ؟

يهدف هذا المقال الى دراسة الانتشار المتزايد للجرأة أو ما تسمى الجرأة للتوصية بانه كذلك فى كل مظاهر الفن فى عصرنا (ولكى نفعل هذا وحتى يكون فى الوسع قبول هذا المعنى أو مخالفته ربما كان من الأفضل أن نكتفى بتعريف يضع بعض الحدود لكلمة جرأة التى تتحدى بطبيعتها ذلك النوع من التكييف . ولا يمكن أن يساعدنا قاموس « لاروس الصغير » فى هذا الصدد لأنه يحدد كلمة جرأة تحديدا شديد الحذر بتقديم مرادفات من شأنها ان تقيم الدليل مرة أخرى على أن القاموس ليس أكثر من مجموعة بارعة من الكلام المعاد . ولكى تكسر هذه الدائرة المفرغة فاننى أقدم من جانبى اقتراحا فى غير اندفاع مؤداه اننا نفهم من كلمة جرأة ذلك الموقف الذى ينبنى على تجاهل ما هو متوقع منك والتجاسر على ما لا يجسر أحد سواك على اتيانه .

فاذا كان المتوقع من مصور ان يستخدم الوانا زيتية لانجاز الصورة ، فان الجرأة تكشف عن نفسها بوسائل كثيرة من بينها السخرية من هذه التوقعات . ويستطيع الفنان أن يعمل لا بالمعنى التقليدى ، أى بتوزيع الأصباغ على مسطح بفرشاة وسكين ، وانما ينثرها فوق اللوحة كيفما اتفق ، تاركا للقطرات المبعثرة من اللون أداء بقية المهمة . وقد يكون فى مقدوره أن يستغنى عن اللون تماما ، مستخدما بدلا منه أية مادة لونية محايدة ، مؤثرا كل ما هو شاذ على غيره دون أن يستبعد منها المادة الافرازية . ولكى يخطو خطوة أخرى من اتجاه الجرأة ، فربما آثر التخلى عن الأصباغ كلية سواء أكانت ملونة أم عطرية ، وحتى القماش

والفرشاة ، مكتفيا باعلان « موقفه الخلاق » وهو يعرد اصبعه فوق بروفيل نموذجه ، مع وصوله بذلك الى نتيجة مناسبة تتمثل فى عدم تركه لآية آثار تدل على بادرة يمكن التدليل عليها . ولست فى حاجة للتوسع فى بيان رصيد السلبيات الذى تمت المحاولة فيه بالفعل والذى يصبح المصور المقدام من خلاله (السابق على حساب اللاحق) مجرد شخص مقدام على حساب انه لم يعد فنانا مصورا .

ان الموقف الساذج المتسم بالعمومية الشديدة ، والذى يبدو أنه شبيه بالجرأة ، هو ظاهرة وعرض للنزعة العصرية ، وهو اختراع جديد لعصرنا المتسم بالعنف ، ناسين ان مثلا مأخوذا من شطر بيت من قصيدة اينيد لفيرجيل ، منقولا من الصفحات الوردية اللون من « لاروس الصغير » Audaces Fortuna juvat يكشف عن الجدة ألنسبية جدا للجرأة ، لم يكن الشاعر يشير بطبيعة الحال الى فننا المعاصر ولا الى فن اى عصر آخر ، وانما المواقف الحيوية مثل الحب ، أو المواقف المهلكة مثل الحرب ، وفى هذه الحالة تكون قولته ، اذا لم تكن قد أصابت كبد الحقيقة المطلقة تماما ، تنطوى على قدر من الصدق الذى يبعث على الاستفزاز . ومن الافضل أن لا ننسى ان السخط المتقلب الذى لا تمتدح شهوته كثيرا فيما يتعلق بدوام فضله وتقديره للجدارة الحقة (اتجاه تفسره ضحالة أحكامه) التى تساعد الجرأة .

ولو كان فى متناول أيدينا احصاء لأثبت لنا ما نعرفه بالفعل عن الجرأة من أنها كثيرا ما تستخدم فى مكان قيم اهم وابقى . ويمكن القول بصفة عامة — ودون أن يكون ذلك بصفة دائمة بمحال — ان الجرأة هى الحصانة الوحيدة المسموح بها الشخص المقدام . فلكى يمسك المرء بشوكة متقدة ، ينبغى من غير شك ان يكون لديه قدر طيب من الجرأة فى الظروف العادية . لكن الأمر لا يصبح كذلك اذا كانت مثل هذه الشوكة هى الشىء الوحيد الموجود فى متناول اليد لحظة الخطر .

وحتى لو أصبح ما يقدمه الخطر من معونة شيئا غير مؤكد ، ولم يذهب الى مدى أبعد من مجرد تقليل درجة احتراق اليدين ، فربما خاطر أى شخص يتمتع بأقل قدر من الجرأة بالاقدام على هذا العمل بالفطرة . (بعد الوصول الى النقطة التى تتحول فيها الجرأة الى ضرورة) فان الاستمرار فى تسميتها جرأة يصبح شيئا لا مبرر له . هذا هو الموقف الذى يجد اصحاب البدع والتقاليع فى الفن أنفسهم فيه .

لكننى قلت ان الشاعر لم يدر بخلده قط أن شعره سوف يسرى اما على نفسه أو على الفن الذى هو بهذه الصفة ، لأنه حين كتبه لم يكن قد استقر اطلاقا على الفرق بين الفن والصنعة ، لكنهما امتزجا وانصهرا كما حدث لهما بعد فى سعيهما لخدمة الانسان .

فى بعض الاحيان يمكن ان تبيح الصنعة لنفسها بعض الجرأة الحقيقية كما فعلت حين شرعت فى استخدام النار . واغلب الظن ان هذا « الحين » لا يمكن

قصره على نقطة محددة فى الزمان أو على قدزية تاريخ محدد بل الأحرى انها تمتد لتعطى سلسلة من المحاولات والتخمينات المتعاقبة . ولقد كان الصانع جريئا فى احتراس شديد ، وهو لا يقدم على المغامرة بادخال اى تغيير على أساليبه الفنية الا بعد محاولات متصلة ، بل لا يسمح لنفسه بأن يكون جريئا دون مسوغ ، ولا يدخل بدرجة أقل فى معارضة مكشوفة لرغبته الشخصية فى أن يكون مفيداً ، فالسندان اللين لا يمكن اختراعه ، ليستخدمه الحداد ، خارج مستشفيات المجاذيب. ومن جهة أخرى فان أقل محاولة فى الفن المعاصر لتحقيق الوضوح تثير الاشتباه فى أى شخص يعانى منه .

والصفة غير المتكلفة التى لا ادعاء فيها والتى نذكر فى هذا المقام انها تركت لنا البارثينون ونوتردام لم تفكر فى الجرأة تفكيرا كافيا ، كما انها لم تسمح لنفسها بان تضيف اية مجازفات لتلك التى أتاحها لها مصيرها فعلا . وبدلا من ذلك فقد استخدمها الساسة والمحاربون والعشاق فى عصور متقدمة بقدر ما يعيها التاريخ . وقد كان بوسع الخطر — اذا شاء — ان يعينهم لأن التقنيات التى استخدمها أسلافهم كان يشتبه فى فشلها دائما حينما تطبق على لحظات الحياة التى لا يمكن أن تتكرر .

وحتى تتمكن الجراة من توطيد علاقتها القائمة بالفن كان من الضرورى تحقيق درجة من النضج والوصول اليها فى الترسيبات المتعاقبة التى استخدمت فى التفرقة بين مختلف أوجه النشاط الانسانى . واخيرا اجترأ واحد من أوجه هذا النشاط ، نسميه الآن بالفن ، وأعلن استقلاله بدرجة من العنف أكثر مما فعل الآخرون ، مطالبا فى نهاية المطاف بالاعتراف له بأنه انبلها بالنظر الى عقمها البهى . ومن ذلك العقم كان محتملا أن يخرج استقلال تام عن كل القواعد التي كانت ملتزمة حتى ذلك الحين بتقنية واحدة . وقد بدأت علاقة الجرأة تصبح مع الذين شرعوا يسمون أنفسهم « فنانين » ومازالوا يعتبرون انفسهم كذلك ، علاقة جسورا مثل علاقات المحاربين والعشاق ، ومن ثم فقد بدا أن لها ما يبررها حتى شرعوا ينشدون الاحتماء بالجرأة .

اذ أنه ما أن اصبح الفن يدرك استقلاله ، مغطيا ذاته بتبريره النهائى ، حتى تمطى فى عجرفة واعتبر أن فصم جميع علاقاته بسائر أوجه النشاط البشرى أولا ، ثم بالانسان فى النهاية ، ليس فقط أمرا مقبولا بل هو من اهم الضرورات . وقد بلغت هذه « النهاية » ذروتها فى زماننا الحالى المضطرب .

وفضلا عن ذلك فقد كان هذا المآل مما أمكن التنبؤ به لاهوتيا ، فحين ارتأى ذاته « لما هو عليه » ، لم يكن أمامه اختيار آخر سوى التطلع الى ما هو قدسى ، أو أن يلقى بذاته فيما هو شيطانى ، وهما بديلان يتساويان من حيث حاجتهما لمعونة الجرأة .

ان القصد البسيط لخلق أى قالب جمالى لم يعد وظيفة قادرة على مساعدتنا على الاتصال والتخاطب مع أقراننا ، وانما أصبحت الغاية هي تأكيد الذات في المحل الأول • ومشروعية هذا القالب من حيث هو ، قبل غيره ، تتضمن تهورا حتى ولو استخدمت أكثر التقنيات تهيبا ، واعتمدت على زوايا رؤية من أكثرها التصاقا بالتقاليد ، ذلك لأن غايتها ليست أكثر ولا أقل من تكرار المعجزة الأولى التي تتمثل في خلق شيء من لا شيء •

ولسنت بحاجة للانتظار من أجل الحصول على الانتهاكات الحالية المقصودة، اذ أنه في اللحظة التي قرر الفنان فيها أن الهدف الرئيسي لعمله هو التعبير عن ذاته ، واضافة قطعة جديدة للرصيد العالمي ، فقد كان أول ما احتاج اليه ، لكي يتمكن من مواجهة مثل هذه المجازفة الكبيرة ، هو جرعة كافية من الوقاحة •

ومن الفكاهات التي يتندرون بها عن جنون العظمة عند فيكتور هوجو ما يقال من انه لدى صعود روحه الى بارئها ، راح يعامل الله على أنه زميل • هذه الفكاهات والنوادر هي في النهاية ما يهدف اليه أشد الفنانين تواضعا منذ اللحظة التي يعترف فيها لنفسه بعزمه على الخلق والابتكار • مثل هذا الموقف من الناحية الحيوية بل الجمالية لم يكف عن أن يكون صحيا بقدر ما جلب من شعور لا يكاد يحتمل من المسئولية التي ينطوى عليها • لكن هذا الموقف قد أصبح مهلكا بمجرد أن حاول تجاهل تلك المسئولية وتحويل الفن الى وسيلة لا معنى لها لقتل الوقت دون الاتفاق على العودة الى أكثر نشاطات الصانع تواضعا ، وان كانت ليست أقلها صرامة •

وحتى حين يتخير الفنان موضوعا أو قالبا فنيا لمواصلة تقليد ما دون التخلى عن مطالبه الخاص بالتعبير الشخصى ، اذ ربما احتاج عند ذاك كما لم يحتج من قبل للشجاعة والجسارة لاسترجاع ما أمسك به كل من سليمان والقديس يوحنا الصليبى أو فيرجيل وفراى لويس دى ليون ، الواحد تلو الآخر ، ويجترىء على التطلع والطموح لكى يعثر على شيء فاتهم وأفلت منهم •

وفى حين استمر سلف الشخص الذى نطاق عليه اليوم اسم فنان فى اعتبار نفسه صاحب صنعة أو حرفة ، كانت الأشياء تتخذ لنفسها شكلا آخر ، وكان فى وسعه أن يتخير موضوعا بالغ الجلال دون ان يكون ذلك بالضرورة عملا متسما بالجرأة • والموضوع الكبير مثل الذهب أو الحجر الكريم كان شيئا « معطى » ، مادة طبيعية يمكن تشكيلها لم تتمكن شخصيته أن تضيف اليها غير القليل اذا لم تكن تحيل الفنان الى جوهر احتياجاتها • وفى الحالات التى ذكرنا لم يحاول القديس جون الصليبى وكذا فراى لويس دى ليون ـ وكذلك كل من سولومون وفيرجيل ـ أن يخلقوا من العدم ، وانما عملوا « كمترجمين » لشيء وجدوه كما لو كان معطى أو مكشوفا ، اقتصروا على تجديد شكله لجعله قريب المنال وعرضوه

عرضا حسنا ، اذا لم يكن ميسرا للجميع فهو على الاقل فى متناول مجموعة كبيرة من الناس · وقد أدى بهم موقفهم الشبيه بموقف أصحاب الصنائع والحرف الى التصرف كمصورين لخلود معترف به من قبل ، احتاجوا اليه لمجرد الملاءمة بينه وبين احتياجات الاداة أو الوسيلة التى يعبرون بها ·

أما من وهبوا انفسهم لحرفة التصوير والنحت والذين عرفوا مع النجاح الذى نحن شاعرون به كيف يستخدمون سجلا مسرحيا ونشيديا صفيرا جدا يعتمد على الدائرة الثقافية التى ابدعوا فيها ليالى أعياد ميلاد المسيح والصلب والصعود فى المسيحية والموضوعات الميثولوجية فى الوثنية ، وقد مضوا بمثل المنهج والأسلوب · ولم يمنعهم هذا من النهوض بكل الرواء الشكلى الذى كان مايزال مشروعا والذى من خلاله بزغت شخصيته التى ربما لم يجرؤ على الإعتراف لنفسه بها · ولقد نشأ النجاح الدنيوى لصاحب الحرفة من احترامه لاحتياجات أقرانه ، التى كان من واجبه أن يفسرها وأن يخدمها بغير نية استبدالها فى كبريائه التى يخضع لها كل شىء ·

والفن حتى ولو لم يعترف به على هذا النحو لم يصبح أبيا متكبرا الا حين اعتبر ذاته غاية ، ولم يكن بوسع كل من مارسه أن ينسى فى أى وقت خضوعه النبيل لحرفة يلتزم بها تماما حتى يبقى على قيد الحياة ، كما انه لم يكن يستطيع أن ينسى وضعه كمعين ومساعد للاحتياجات الجمالية الخاصة بالجماعة التى ينتمى اليها .

وان التعقيدات النظرية غير المقبولة للآثار ، مثل المعابد الاغريقية أو الاهرام المصرية المختفية فى احتشام وذوق خلف مظهر من البساطة يكشف عن المدى الذى يمكن الوصول اليه بفضل هذا الخضوع . ان مغزاها الخالد ينبع من الضبط الذى يمارسه شعب بأسره ، يتصرف من خلال صاحب حرفة ، حررت ارادته المنقادة من طريق تحقيق هذه الحاجة .

ولقد بدأت الامور تتغير بعد بداية عصر النهضة أولا فى ومضات متفرقة مع اتجاهات جريئة متسمة بالطموح فى الفن ، أصبحت موضوعاتها التى يفرضها الغير تحتذى تدريجيا · والضرورة الخارجة التى تقتضى وجود شخص يتمتع بموهبة أكبر يعبر عما لا يستطيعه الشخص العادى منصة طيبة يعرض عليها شخصيته من بدأ يستخدمها متعللا بخدمة الفن . وقد تكرر هذا الأمر فى « أوج » عبادة الشخصية التى صاحبت الحركة الرومانسية حتى اذا ما بلغنا عصرنا الحاضر ، نجد الرمز والتوقيع هو الشىء الذى له قيمة أكثر من الشخصية .

وربما كانت الوسيلة الصحية لتجديد الصدق هى اخفاء التوقيعات الموجودة على الأعمال الفنية فى المتاحف ودور الكتب لوقت طويل حتى يتعلم الناس من جديد تقدير القيم الحقيقية .

وكنتيجة لهذا قد تصبح احتياجاتنا صريحة واضحة ، وسوف يكون من اصحها جميعا تبرير رأس حربة الحرية المتقدة التى لم يعد لها مبرر فى الوجود .

وفى ظل الظروف الحالية لعملية التفرد وتحديد الشخصية هذه من ناحية والاستغلال المتعجرف من جانب الفن من ناحية أخرى ، الذى هو فى الواقع شىء واحد ، نجد أنه بالتجاهل الصغير لكل اتصال بالواقع وكل الآدميين الذين يستغنى عنهم بدرجة أقل يصبح اقامة روابط مقارنة ، مهما كان حظها من الضآلة ، أمرا مستحيلا ، ويحرر العمل الفنى من أى تحقق من نجاح نتائجه أو فشلها . ولا يمكن ان تتوقف هذه النتائج على تقريب غير متوقع لما هو خارجى من حيث ان عملية الخلق والابداع تتضمن ازدراء اى تشابه ، يمكن أن يجعل من هذا الابداع شيئا مشكوكا فيه .

ان البعد عن أى تشابه له علاقة أسرية بالواقع ، مهما كان هذا التشابه ، هو النسق الذى يجرى عليه كل منحى جمالى : فكل عمل من أعمال الفن ليس عليه الا أن يكون مخلصا لذاته . ولهذا السبب فان فقدان الحس بالمعنى الاشتقاقى للكلمة ، ان لم يكن هو أفضل ضمان للتذوق والامتياز فهو على الأقل مؤشر ودليل ملطف على أننا نسير على أسوأ طريق ، وهذا الطريق فى الوقت نفسه هو أفضلها .

وبالمثل فان الاشارة الى الحالة العقلية التى يحدثها العمل الفنى عند المشاهد قد تكون مضللة لأن ذلك قد يعنى خلط الجماليات بالسيكولوجيا التى ربما خطت خطوة زلقة للوراء فى العملية التفاضلية التى أشرت اليها . وهكذا نجد انفسنا أمام حاجة كبيرة الى حد أدنى من القيم الضرورية . انها اللحظة المثلى التى كان يحتاج اليها كلى من المبدع والناقد (مبدع أى شىء ؟ ناقد أى شىء ؟) لكى يغوصا فى عملهما دون حاجة منهما لأن يوضعا موضع المساءلة أمام أحد غير ضميرهما الحر الطليق خيرا كان ذلك أم شرا .

ومن المحتمل جدا أن ما يجرى الآن ليس أكثر من الهبوط بأغراض الفن الى مستوى العبث (اللامعقول) ، حين يعتبر الفن ذاته نشاطا مستقلا عن بقية الأنشطة الانسانية . أما اننا قد بلغنا حدود طموح شيطانى فى استعلائه فهو ما تشهد عليه دائما تلك الكراهية المتزايدة من جانب الفنان لأى مشاكلة للنفع . فان كنت قد مررت مرورا هينا على مثل هذا الموضوع الطموح ، فلذلك راجع الى أننى أرى أنه من الأمور الهامة أن أقيم بينة على ان مفهومنا اليوم عن الفن ينطوى على جراة لا مفر منها على الرغم من أن الشخص الذى يتحرك تحت تأثيرها قد لا يعرف ذلك . على أننى أفضل فى الوقت الراهن أن اكتفى بفحص ما يمكن تسميته بالجراة الاضافية وأن أختبر صدقها بهذه الصفة .

فمن ادراكنا لطبيعة العملية التفاضلية التى صدر عنها الفن ، نجد أن الجراة التى دفعته وحركته لأول مرة يمكن الآن استخدامها كحافز للبحث عن

قوالب تعبير جديدة دون أن يعتبر هذا من حيث هو شيئا مؤسفا ما دمنا نأخذ فى الاعتبار أن مثل هذه الجرأة ينقصها أنها فى تطرفها تنسب لذاتها قيمة جمالية.

ان حافزها ذو طبيعة أخرى ، وهى تصبح غير محتملة اذا نسيت تلك الحقيقة . والآن فقد صار ما هو حوشي شيئا مباحا . وحين تتنافس أعمال ذات قيمة متساوية ، فالأساس فى أى قرار نهائى يصبح الشيء المفضل عند أكثرها جرأة كما لو أن مثل ذلك التفضيل — صدقا أو كذبا — يمكن قبوله فى قرار ينبغى أن يلتزم القيم الجمالية .

والناس تنسى أن الجرأة ليست أكثر من حالة بيولوجية من السهل عليها أيضا أن تضع ذاتها فى خدمة الأفضل والأسوأ على حد سواء أو فى خدمة الأخلاقى واللاأخلاقى . انها مثل التخطيط أسفل الكلمات عند الكتابة مكتفيا بتأكيدها وزيادة حجمها .

والجرأة عند قديس — لا شك أن جرعة كافية منها ضرورية له — تزيد من قدرتها للوصول الى السمو الروحى . لكن هذه الجرأة ذاتها فى نفس لص تدفع به وتجره الى أسوأ أنواع الجرائم . وقد يبدو بالمثل أن مدح الجرأة أو ذمها فى مجال السلوك شيء سخيف فى أى من مثل هذه الحالات ، من حيث أن ذلك لا يخلق شيئا فى ميدان الأخلاق ، قاصرة ذاتها على تقوية ما تعرض لمرونتها التى هى آلية فقط ، لاعطائها مجالا أعظم ، سواء كان ذلك ليشمل الطالح أم الصالح .

لا فرق بين هذا وبين ما يجرى فى الفن حين توضع الجرأة — افتراضا كما سوف نرى — فى خدمة فنان عظيم . ان النتائج التى يسفر عنها مثل هذا الوضع لتبهرنا لأن مكانته تحول بيننا وبين تبين أن الجرأة ، لم تكن هى التى أدت اليها.

لقد حان الوقت لنتساءل عما اذا كان هذا الشيء اعتبرناه جرأة فى هذه الحالة كان كذلك . ولأن الفنان العظيم يعمل مع أوجه الشطط الطبيعية التى تبيحها له قدراته المتطرفة كذلك أو التى تفرضها عليه ، فانه يدهشنا بما يحقق من نتائج كما تبهرنا الشمس دون أن تقصد الى ذلك . انه لا يلجأ الى هذه الجرأة الاضافية التى أشرت اليها من قبل وانما نجد أن حدود جرأته وجسارته ذات مجال أكبر بالطبيعة . انه يترك وراءه امكانيات الآخرين دون أن يلحظها لأنه لم يستشعر بعد حدوده الخاصة ، ولهذا السبب فهو لا يستطيع أن يرتكب الخطأ الصبيانى الذى يتمثل فى البحث عن الجدارة والأهلية .

انه لا يعتمد على أية مقاصد أخرى غير تلك التى يستمدها من احتياجاته المباشرة ، وهى تكاد دائما تكون ذات طابع مأسوى على درجة من الشدة بحيث يبدو من السخف محاولة تقويتها بالحيل والألاعيب . وأنت حين تكون واقعا فى قبضة شطحاتك الخاصة فأنت لا تضيع وقتك فى ألعاب الحواة .

ومن الواضح أن الجرأة الفطرية الأصيلة والموجودة فى الفنان بالفعل تكشف عن ذاتها من العبقرية بعنف بالغ الشدة وتكاد دائما تعطى لأعماله جوانب يعتبرها

معاصروه وحشية . ولهذا السبب قد يكون من السخف بالنسبة له أن يحاول الالتجاء الى خدعة الجرأة « الاضافية » ما لم تكن غايته تجنب التبعات المترتبة على كونه عبقريا موهوبا . وعلى الرغم من الانتهاكات الصارخة الافتراضية ، وما قد يبدو فى هذا القول من تناقض ، فالعبقرية الحقة ليست جريئة فى نطاق هذا المعنى لا لأنه فقط فى غير حاجة لأن يكون كذلك ، لكن لأن مزاجه الخاص ينهاه عن ذلك . والجرأة الوحيدة التى يمكنه أن يسمح بها لنفسه ذات علاقة سلبية ألا وهى التفاهة . ولسوء الحظ فالفنانون اللامعون الذين يسلمون انفسهم لهذا المنزع ليسوا بالقليلين .

وان ما يمكن ان يبدو جسورا لمشاهديه المبهورين المضطرين لأول مرة ، يميل الى أن يكون على العكس هو النتائج الختمية فيها بسبب الخضوع الدقيق لاحتياجات ومطالب شطحاته الخاصة . ان عنف التعبير المتفجر فيها هو الذى يؤدى الى خداعهم فيما يتعلق بوجود له فى الحقيقة ، يمكن ان يكون على العكس من ذلك هو السبيل السريع المباشر لأن تضع ذاتها فى أبعد الاماكن عن توقعات الناس الا وهى : السفلى (التقليدى) .

واننا لنجد فى حياة جميع الأساتذة الكبار بغير استثناء صراعا شخصيا للغاية مع مقتضيات حرفتهم ، بل ان هذا الصراع ليزداد ويتعاظم بسبب حدة المشاكل التى يجب اخضاع هذه المقتضيات لها أو بسبب الصعاب الناشئة عن وضعهم الخاص . وكم من مرة تكون فيها جرأتهم المفترضة هى اللفتة العاطفية الوحيدة التى يمدون بها أيديهم الكريمة نحونا دون رغبة منهم فى ارهاب أحد .

وعليهم أن يضيفوا قوانينهم الخاصة — التى ليست قط متقلبة — الى تلك القوانين التى ورثوها . لكن هذه القوانين يمكن أن تبدو هوائية ومتقلبة بسبب الطابع الوقتى لبعضها . وفى بعض الأحيان يقصرون مشروعيتها عند الضرورة ويستبدلون بها غيرها من القوانين التى لا يمكن الاستغناء عنها والتى تتسم بالمراوغة على حد سواء . لكنها جميعا متساوية من حيث بعدها عن النزوة كما يلاحظ عادة فيما بعد حين تتكشف الوشائج القوية التى تربطها بالفن التقليدى العظيم ، هذه الرابطة كثيرا ما ترجع لتلك الحالات المفترضة التى تتبدى فى الغناء خارج السلم الموسيقى أو بمعنى آخر فى التعبير الخاص الخارج على حدود العرف المألوف .

من هنا تنشأ كل الصعاب التى يعانيها أولئك الذين يقتفون الأثر الذى يخلفه اى عبقرى ، يلحظ بالفطرة لحظة بلحظة تلك التحولات والتقلبات التى تطرأ على قوانينه الخاصة والتى بالاضافة الى ذلك تطبع نزوعه الطبيعى الحر الناجم عن أن طريقه لم يسلكه أحد من قبل ، فى حين أن الذين يتبعون خطاه يحاولون جاهدين ودون جدوى أن يوائموا بين خطواتهم الصغيرة وتلك القفزات الواسعة التى يخطوها العبقرى العملاق . أما أولئك الذين يزون العمل جريئا دون أن

يكون كذلك ، على الأقل ، لا باعتباره غرضا اختباريا ، فهم أول من تخدعهم المظاهر . وهو يتخذ هذا المظهر عند أولئك الذين يحكمون عليه من وجهة نظر وضعهم الخاص الدقيق . ومن هناك يمضون فيعتقدون ان ما هو غير عادى يستحق الاعتبار لهذا السبب نفسه ، وان كل ما يدهشنا ويخيفنا - بل الأكثر من ذلك - يربكنا ، جدير بالمحاولة . ثم أن الجرأة تحاول أن تحتل مكان جرأة مفترضة . ولما كانت منفصلة عن العبقرى الذى تجاهلها فانها تبقى كذلك منفصلة عن قواها الخاصة بها التى هى لا شىء من الناحية الجمالية ، آه لو أن الأمور لم تتقدم الى ابعد من هذا ؛ لأن ما يحدث أسوأ من هذا : فالجرأة فى خدمة التفاهة تجعلها واضحة وتزيد من وقاحة نبراتها وتكشف عن أوجه سوقيتها وغلظتها وتضىء بلا احترام أو تبجيل تلك الفراغات التى يخلقها انعدام القيم .

ان القدرة التى لا يمكن انكارها لما يتردد من أصداء الجرأة تحمل معها كنتيجة لا مفر منها نمو التفاهة التى تسعى فى ارتباكها واضطرابها لتحتمى وراء الجرأة أسوأ أعدائها على الرغم من أنه كان بوسعها - دون أن تبقى معرضة لقدراتها المتزايدة - أن تستقر فى الغبش الذى يلائمها أساسا .

والجرأة تزيد من أى شىء تركز عليه دون أن تضيف اليه ، بل انها لا تحسن من أى شىء بطبيعة الحال تماما مثلما تفعل المنحنيات الموجودة فى العدسات أو المرايا ، حتى أقوى العدسات المكبرة لا يمكنها ان تكتشف حيوانات « سيد قشطة » التى تعيش فى روافد نهر النيل فى أكثر الخرائط امتلاء بالتفاصيل ما لم يكن رسام الخرائط المتسم بالأناة والصبر وروح الدعابة كذلك قد وضعها مقدما على الخريطة . وهذا شىء لا يصدقه العقل ، لكن الأمل الذى ينفث الحياة فى كل جرأة هو شىء من هذا النوع .

وفى الحالة التى أشرت اليها حين يقدر الحكم الجرأة ساعة اصدار القرار بوصفها جدارة حاسمة ، يمضى بمعايير متشابهة كالشخص الذى يقيم لوحة على أساس حجمها وقطعة النحت ، على أساس ثقلها النوعى والسيمفونية على أساس عدد الساعات التى يتطلبها عزفها . هذه جميعا قيم زائفة وعرضية لا يمكنها الا أن تتدخل بطريقة سلبية فى القرار . وثمة ظاهرة لا تقل عن هذه من حيث أنها تبطل ذاتها ولم يشك فيها أنصار الجرأة ، تلك هى العدوى التى يعانيها الجمهور من مثل هذا الموقف . ولما كانوا لا يريدون أن يؤخذوا بجريرة الوقوع فى خطيئة الصراحة فهم يعرضون ثمنا أعلى لكى يعرفوا من الذى يجاوز الاخر . وهى ظاهرة كبيرة الشبه بما يجرى داخل معجل (السيكلوترون) حيث نجد أن كل تعجيل يثير تعجيلاأكبر حتى نصل الىحالة يفقد فيهاصبية الساحر سيطرتهم الممكنة، هؤلاء الصبية الذين يغريهم الترقب المثير من جانب ضحاياهم الى زيادة الايقاع حتى ينتجوا جنون الفن النهائى . ان التطرف فى تقدير عمل فنى بسبب ماينطوى عليه من جرأة لم يكن ليأمل فى الوصول الى أية نتيجة اخرى . وان ما يجعله

اسوأ من هذا هو أن الانتظار المتطفل للشيء غير المتوقع يؤدى الى الضجر .

فاذا أعطيت الجراة الطابع المحايد الاخلاقي واللااخلاقي ، فمن السهل عليها أن تنشد أهدافا ــ عدوانية كانت أم خيرة على حد سواء ــ على الرغم من ان الموقف الأول هو المتواتر في الفن المعاصر . وهى تكاد فى معظم الحالات تستخدم بغرض خلق فضيحة من الهزؤ والسخرية المتوقعة الناتجة عن عجز الآخرين عن الفهم الذى يؤخذ قضية مسلمة ، مقتربة من عدم الفهم هذا حتى يصبح لا مناص من التفكير فيها بوصفها كذلك . لكنها (الجراة) لكى تظل قادرة وفعالة فى عدوانيتها ينبغى عليها أن تلتزم القواعد التى تستهدف مهاجمتها بقدر من الخضوع أو بالمزيد منه مثل الاكاديمى الذى سوف يحترمها . هذا هو السبب فى أننا نساعد الآن على ظهور أكاديمى يتميز بشيء غير مألوف على نحو لا يقل عن الآخر سخرية وهزؤا يبعث على الاشفاق ، بقوانينه وحيله وجنونه وبالطبع بقصوره وعجزه .

والفنان الجرىء المقدام يحتاج الى العاقل الثاقب الفكر حتى يستطيع أن يزدريه طواعية وان يعرف ما ينتظره هذا العاقل منه لكى يفعل العكس دون أن يلحظ أن ما ينتظر منه بالفعل فى يومنا هو الا يفعل ما ينبغى عليه أن يفعله ، وهو الوضع الذى بلغنا به نوعا من المعايشة كبير الشبه بأكثر نزعات المحلية ضحالة . ولم يحدث قط ان سعى الفنان الى جذب الجمهور مثلما يفعل اليوم مع فارق هو أن ماسوشية الجمهور تؤخذ قضية مسلمة .

ولقد بدأت نزعة احتقار الجمهور فى منتصف القرن الماضى ، لكنها لم تظهر الا فى أفكار الفنان وليس فى أعماله ذاتها ، وكان يشار للجمهور بوصفه شيئا ضاريا ناقص الخلق والنمو أو على أنه « بلدى وفظ » بل وبما هو أسوأ من جانب فنانين كبار ، لكنهم لم يستخدموا قط نزعات النقص فى الخلق والنمو الغليظة فى عمالهم . وعلى الرغم من أنه من الناحية الاحصائية يمكن أن يبدو مثل هؤلاء المعدلين قريبين من الحقيقة بشكل خطر ، فمن الأفضل أن لا ننسى أن من من بين هؤلاء من يتعرضون للهزؤ والسخرية على هذا النحو ، هناك أناس ضائعون فى عزلة كبيرة الشبه بتلك العزلة التى يحياها المبدعون قل عددهم او كثر ، أحياء أم لم يولدوا بعد سوف يجد عمل الفنان أمامهم وفى اعينهم تبريره فى نهاية المطاف ان كان له هذا التبرير . هؤلاء هم أقرانه (الـ « أقلية الكبيرة » التى تجرى فى فلك وان رامون جيمنيز) الذين لا يمكن الا يؤبه بهم .

ورغما عن ذلك فان غطرسة الفنان تسلم فعلا بأنه حتى وسط أولئك الذين يفهمونه ، ثمة أناس لا يفهمونه قط بدرجة كافية ، وأن هذه الفكرة هى التى تغريه بأن يأخذ دورا فى العملية مضيفا بذلك (من جانبه) عناصر جديدة من عدم الفهم .

وان ما يبــدو أنه يتجاهله هو .وجود النــاس الذين يجب أن يكون لهم اعتبار عنده ، القادرين ليس فقط على فهم مغزى العمل ، بل كذلك على السخاء فى توسيع وتكبير ذلك المعنى له باكتشافهم فيه عناصر تسليمة ومنطقية ، لم يدر بخلد صاحبها يوما أن يرتاب فيهــا • ان كل المحاولات العشوائية التى بذلت لاشــاعة الارتباك والحيرة عنــد هؤلاء النــاس الذين يتوقف على وجودهم وجود الفنــان ، تشكل أذى (دفع هو ثمنه مقــدما) من أسوأ نوع يلحق الضرر بعمل الفنــان الذى ابتلى بهذا الأذى •

هذا الجانب المتبقى من سوء الفهم الذى يرى الفنــان أنه لا مندوحة عنه يحنقه ويثير حفيظته أكثر من الاتفاق على الجوانب الجوهرية وينمى فيه مرضا نفسيا يؤدى به الى اعتبار أى شخص يقترب من عمله عدوا له ، يهاجمه منذ البداية بجرأة لاشاعة الاضطراب عنده ، وبذلك يزيد من بعــد الشقة ، وهى عنــد الفنان لا قياس لها • ولا تكفى الجــرأة قــط عن الظهــور بمظهــر الشــخص الجــذاب • ولدى الفنــانين السوقيين غرض مزدوج ، فهم يبدأون باستهواء السطح ثم الغوص ثانية فى الأعماق، خالقين بذلك علاقة مبهمة ، مشابهة لتلك التى يستخدمها الشخص الذى يغرر بامرأة ويراودها عن نفسها ، محاولا أشــباع شهواته مع تجنب المخاطر الــكامنة فى الحب الحقيقى • وبالقــدر الذى يوافق الجمهور المهــان ــ وهو دائما قدر كبير ــ على هضم الاحتياجات المتفجرة للجرأة ، يصبح من الضرورى استبدال شىء آخر بها قبل أن تبرد وتفقد قوتها أمام أخرى أكثر جسارة • هذا الفنــان يمنع توسيع هذه الفجوة التى ينبغى أن يكون اختفاؤها أعظم رغبة عند كل فنان •

لكن ينبغى علينا أن نعترف بأن ثمــة شكا مفعما بالأمل بأن شخصا يمكنه أن يستخدم الجرأة بغرض خير يتمثل فى مساعدة شخص آخر • والفنان الحقيقى يعرف أن ظرفه هذا ينشأ ــ من بين أشــياء أخرى ــ من كونه وهب مقدرة أكبر على تحدى المخاطر الضرورية التى ينبغى عليه أن يخوضها لكى يزيد من دائرة الحساسية الانسانية وهو قد يعمد الى استخدام هذه الجرأة كحافز لتحريك الخمول المتهىء لتقبل الأشياء بسرعة ومن الحكمة للغاية التسليم بوجوده عند أغلبية الجماهير •

وفى بعض الأحيــان نفقــد الثقــة بالذمة والأمانة حول الاســتمتاع الجمــالى باعتباره رد فعــل شرطى بسيط قبــل أن يؤدى اليــه ذلك الشىء الذى أخذ قضية مسلمة • وعادة يخفى الفنان هذا الخمول المستقر فى أقل مجهود وتكون الهزة التى تنزعنا بعيدا عن مثل هذه الاستكانة الآثمة صحبة دائمــا • ويمكن أن تكون القيمة المساعدة للجرأة المستخدمة لمثل هذه الأغراض ذات أهلية وجدارة ، على أننى لست أدرى أأكون غير جدير بالثقــة اذا ما تشككت فى أن هــذا الاســتخدام المنبه ليس أكثر الاستخدامات تواترا ، لــكن مهمــا كان فمن الظلم اغفــاله ما دام قد ظهر فى عدد من الحالات•

وعلى أية حال فعلى الفنان أن يخوض المخاطر على مسئوليته ويجعل سماحته تمضى دون أن يلحظها أحد، مخفيا المخاطر التى تم خوضها على مسئوليته عن أعين المستفيدين حتى يتمكن من الحصول منهم على اعتراف مثير بالغ الصراحة بأنهم جربوا « ذلك » من قبل ، على الرغم من أنهم قد لا يكونون قد عرفوا قط كيف يعبرون عنها جيدا . والجرأة التى تتم ممارستها على هذا النحو من التفرد لم تكن لتستحق أقل من الاحتضان اذا أصبحت — وهذا أمر غير محتمل — مدركة لوجودها ، وما كانت لتثير قط تعليقاتى الحالية . أما أنها موجودة فهذا أمر مؤكد لأن كل فن عظيم يعتمد على توتره الضمنى فى النهاية .

فاذا ما أخذنا فى اعتبارنا السيكولوجية المعقدة للفنانين ، فان التبسيط الذى يسمح لنا بتقسيمهم الى مجموعة من القديسين ومجموعة أخرى من الساقطين المنبوذين شىء بعيد الوقوع ، كما أن ربطهم فى نطاق كل النسب المعقولة من حيث أغراضهم الخيرة والعدوانية على السواء شىء ينبغى التسليم به .

فاذا تجاهلنا النيات فقد يكون من المعقول لعدوان مفرط أن يحرك الادراك المنبوذ على اعتبار الاستحالة ، وأحيانا يكون فى مقدور النيات أن تبقى طيبة بواسطة التأثير الآلى المرتد الناتج من كل شك فى الجرأة .

وليس علينا الا أن نشير الى جانب واحد كثيرا ما يعزى خطأ للجرأة الشخصية عند الفنان الذى هو فى نطاق هذا المعنى أول ضحاياها ، والذى ينجم عما يمكن تسميته بالجرأة غير الذاتية (الشخصية) فى الفن المعاصر . وكثير من المظان تنشأ وتتولد هناك ، بل انه فى الوسع أن نناقش مشروعية اسم الجرأة الذى ظل طوال أكثر من قرن من الزمان يعمل سطحيا من خلال الارادة الشخصية للفنانين .

ولقد أحس كل فن بحسب الدرجة التى شرع يمارس بها حريته الذاتية الوعى بضروراته الفنية الجوهرية التى ناضلت دائما للكشف عن ذاتها بهذه الصفة، وتزداد حتى ألحت فى قهر أغراض دنيوية ذات طبيعة أخرى تغاير تلك التى أخضعتها . هكذا نجد أن فن التصوير قد تجاهل الانتاج السابق من التصوير ، هادفا الى الفكرة المجلوة للرسم التجريدى الذى نبذ فى النهاية سعيا وراء « اللاشكل » ، ثم يمضى متوترا من صرامة ما هو حوشى الى الأقنعة الغريبة الشكل عند فن البوب أو الالعاب الثمينة الخفيفة فى فن الأدب . فاذا ما انتقلنا الى الشعر فسنجد أنه يتجاهل كل زعم غنائى ، متبخرا فى رؤى خيالية نصف شفافة ، متحررة من دنس أى معنى حتى من ذلك الذى يمكن أن يعزى الى متخلفات اللاوعى المرتاب فى الكتابة التلقائية . والموسيقى بأهدافها الصارمة المتمثلة فى الاستبطان الآلى ترى أن أقل دلالة على الفكرة الميلودية والمضمون الدرامى أسوأ شناعة ، وتقتصر على التجارب الذكية التى تجرى فى المعمل الالكترونى .

أما الصيغة القديمة التى ظهرت فى مطلع القرن منادية بمبدأ « الفن للفن » ، فقد حلت مكانها صيغة أخرى تقول « الفن لمصلحة الفن » . وهكذا فبانتصار الفن

على التفكير فيذاته اكتسب تلك العادة المريضة التيتبدو في تثبيت اهتمامه وتركيزه على وجوده السيكولوجي ، معطيا الافضلية كما ينتهي دائما بأن يفعل ، لفوضى تلك السيكولوجية ، متجاهلا الاغراض العليا التي يمكن أن تكرس لها وظائفه الصحية • انها لوقاحة تشبه تماما تلك التي يتصف بها بعض المرضى الذين لايهتمون بمستقبلهم الميتافيزيقي أو الديني أو التاريخي الممكن ، أو على نحو أكثر تواضعا مستقبلهم المحلي ، أن يقصروا اهتمامهم وموضوع حديثهم على بنكرياساتهم أو على اللاوعي • على أن اضطرابا باثولوجيا يزج بالحياة في مهاوي الخطر يمكن ان يؤدي الى مثل هذه الحالة المتسلطة التي يمكن أن نجد لها العذر • لكننا نجد في الفن أن هذا الانشغال النامي الذي يمكن أن يكون صحيا لو أخذ بجرعات معقولة قد انتهى بالعمل ضد ما توقعه دائما كل كائن من نفسه : عواطف وأحاسيس طبيعية اسمى تسمح له بأن يهذب مستويات أعلى من الروح •

أكاد أبصر الآن ابتسامات الاشفاق على وجوه بعض قرائي وهم يطالعون هذا الاعتراف الصريح • وانا أعرف الاجابة مقدما : ان مايهم الفنان ليس هو السكولوجيا ، سواء كانت سيكولوجيا الجمهور أو سيكولوجيته هو نفسه • فلو دار بخلدك أنه يستطيع أن يرسم شيئا آخر غير الرسم ، فأنت بذلك تكون قد أهنته • والتصوير بهذه الصفة له مشاكله الخاصة به ، الغريبة على كل مراقب •

والبحث عن التأثيرات لمجرد البحث مع تجاهل اى عذر دخيل هو الشيء الوحيد الذي يخدم اهتمامه • ماذا يتصور الكائن البشري نفسه ؟ من أين له بالفكرة القائلة بأن الفن يجب أنيأخذ في حسابه وجودهواحتياجاته المضحكة؟ الشعراء والموسيقيون يقولون مثل هذا عن فنونهم • والشيء الخطر هو أنه من وجهة النظر المهنية توجد لديهم فكرة ، وللبرهنة عليها لدينا بعض الطرائف المعبرة النبيلة التي أبدعوها في معاملهم المحكمة الاغلاق • لكن هذه النظرة الاحترافية التي تكاد تفرض سيطرة ديكتاتورية في الفن ، والتي تكاد تمضي دون معارضة ، ما زالت بعيدة جدا عن أن تجد لنفسها تبريرا • فليس في وسع أي فنان قط مهما فعل ومهما قال ضد الجمهور أن يتجاهل هذا الجمهور دون أن يتجاهل نفسه ، فهو مضطر أن ينشر وأن يعرض وأن يجعل نفسه مسموعا في موسيقى الكونسير ، لأن ذلك المصير المتناقض الذي لا مبرر له، والذي يجعل الفن من أكثرالانشطة فردية، الىالحد الذي يجعل كلالمؤمنين بعبادتهايمضون فيطريقهم مؤمنين بأنلاشيء يعني غيرالذات، لابد منأن يكونوااجتماعيين• وعلى كل فن أن يفض هذا التناقض في تخليق حيوي ، لأنه اذا لم يفعل فببساطة لن يصبح فنا • فمنهذه الحقيقة الأساسية بما تنطوي عليه من بعد نظر تكمن كلالأدران التي تعتور الفن المعاصر ، مادامت الجرأة غير الشخصية تجد متعة خالصة في الصعاب التي تثيرها مشاكلها الخاصة بها، متجاهلة تماما مشاكلغيرها، وهكذا تحول وسائلها الى غايات •

كل هذا يحدث لقارىء قصيدة واضحة بطريقة خفية محيرة من الشعر الشاعرى ، تتجاوز قدرته الفائقة على اختراق الغنائيات العتيبية على نحو أكثر مما كان منتظرا منه ، مثلما وقع للعاشق الذى تلقى تذكارا لم يكن الصورة الفوتوغرافية لمحبوبته وانما صورتها بأشعة اكس • هل ثمة معنى لمناقشة الصدق الأكثر او الأقل للصورتين ؟ ان كلا منهما يأتى نتيجة لتكنيك مشابه ، آلات التصوير والعدسات والحمامات الكيميائية ، لكن العاشق التعيس له كل الحق فى أن يعتبر وقاحة ذلك التطرف فى التغلغل الواضح الذى جرد المحبوبة من شخصيتها من خلال الموضوعية الكاملة حتى تحولت الى هيكل عظمى •

ان اصرار التكنيك الخالص المجرد على السير وراء غاياته الخاصة قد تجاوزها أحيانا بنتائج مدهشة، لكنها نتائج لم تعد تفيده فى شىء• هنا نجد أن خطيئة الكبرياء الزائدة عن الحد لم تعد خطيئة الفنان ، وينبغى علينا أن نقصرها على الفن ، الذى سقط فى نرجسية كانت متوقعة منذ اللحظة التى شرع فيها يزدرى الصنعة • أما الصعاب التى يمكن أن يعانيها الجمهور فان الفن لا يبدى تجاهها أقل اهتمام، مثل الشخص المفتون بصورته فى الرثاء للصدى التعس • ومن هنا يأتى رفضه لقصر أغراضه على البحث الدائم من أجل البحث الذى تبدو ثماره فى مجرد تلك الكومة الهائلة من اللوحات التى لا يمكن أن تثير اهتمام أحد غير الفنانين أو تجار اللوحات الذين ينحصر عملهم فى البحث عن عملاء محتملين لتلك اللوحات ، يعاونهم فى ذلك ما يضمره هذا العمل من زهو • خذ أيضا تلك الأشعار التى لا يفهمها غير الشعراء فى حالة افتراضية بأنهم قد يتنازلون وينفقون وقتهم فى قراءة ما يكتبه زملاؤهم ، أو تلك المؤلفات الموسيقية المقصود بها التأثير لا فى حساسية أى شخص وانما المقاييس الموضوعية عند أساتذة الطبيعة المتخصصين فى الصوتيات •

وفى حين يبقى الانسان التعس المنحى جانبا ، الذى تبقى احتياجاته الجمالية المتزايدة دون اشباع بسبب عجرفة أولئك الذين عليهم اشباعها ، معرضا للانحرافات التى تصاحب كل الآمال المحيطة ويتم استغلالها الى حد كبير من جانب أشكال الاعلان الأقل نبلا •

أن صمت الفن المعاصر المشغول الى حد كبير بصحته وسلامته ، الذى لا يعرف ما يمكن أن يفعله بها ، يحتمل جدا أن يكون له أصل مشترك غير مذكور مع ألوان الجرأة الأخرى التى تصيبه، حقيقية كانت أو زائفة• واننى أجترىء على الافتراض بأن كل ما يمكن أن يأتى من مجموعة الاعمال السامية (المتفوقة) التى تصبح غير محتملة لأولئك الذين يطمحون فى أن يكونوا مبدعين ، وذلك مفهوم من الفن الذى سبقنا والذى أصابه القهر ، هو امكانيات فى التجديد • أن الميراث الفنى الذى تلقيناه ميراث

غامر ينمو على الرغم من كل شيء ، وان الالتزام المفعم بالكرامة الذى يفرضه على أولئك الذين ينتوون السير فى هذا الطريق لا يحتمل • وان خطة البيان المستقبلي الذى يرمى الى إحراق المتاحف تبدو فى نطاق صراحته الهستيرية اعترافا واضحا بما ارتبت فيه الآن •

ومثل الوارثين الذين من عليهم مورثوهم وأجزلوا لهم العطاء نميل الى بعثرة ما جمعه أسلاف لنا فى صبر وكد • ونحن نخاطر بكل كنوزهم على الزهو العابر لفن البوب أو نترك أنفسنا لكى ينشلها الذير منا لقاء فراغ « الشيء » ، وهكذا ننضم للضحايا العديدين لعمليات السلب والاختلاس • ولما كانت عبادة الجرأة لا يمكنها أن تكف عن كونها عبادة الايجاز ، فاننا نتصالح مع أنفسنا مقدما على أساس من عدم المشاركة فى تتبع المكارم التى أخذت تزيد ـ ابتداء من التاميرا ولاسكو ـ الميراث الفنى المشترك الذى أدى الى أن يبلغ الانسان مرحلة الرجولة والرشد •

لكن لكى ننقذ ماء وجوهنا فنحن نعمد الى النظر الى اللقطة من بعد خمسة أقدام ، ناسين أغراضا جديدة للفن ، بل الاحرى أن نقول أننا نحاول اقناعه بنبذها جميعا كجرأة نهائية قاطعة • ومع ما يجرى الآن فقد كف الفن عن أن يكون فنا دون أن يوافق مروجو هذا النشاط ـ الذى لا اسم له ـ على التخلى عن أسماء فنانين أو نقاد فن لصالح هيبة يحتقرون اسمها •

وهم يحاولون فى كل ستة أشهر أو ثلاثة احداث تغييرات وتقلبات على التقنيات والأغراض التقليدية ، تقنيات وأغراض كانت تعج بالحركة والحيوية تقليديا بفعل الإسهامات المتعاقبة التى كثيرا ما تناقضت فيما بينها من جانب الاساتذة والاعلام الكبار • هذه التقنيات تستبدل بها عمدا تقنيات مرتجلة من جانب جرأة أبعد ماتكون عن اخفاء وجهها المتأجج الذى تصعره علنا باعتباره أفضل مزاياها ، وان شئت فقل مزيتها الوحيدة •

وكل فنان يكسر أو يحاول أن يكسر روائعه • والمسألة أعقد بكثير مما تبدو مع ما هو مفهوم حتى الآن عن الفن ، سواء من حيث الوسائل والأهداف ، فان أول مايبحث عنه على الرغم من أنه قد لا يعترف بذلك لنفسه ، هو استبعاد كل امكانية مقلقة للمقارنة • وما دامت عزلته الافتراضية قائمة فلسوف يكون الأول والوحيد فى هذا الميدان • ولسوء الحظ بالنسبة له سوف يبدو مثل هذا التفرد خداعا منذ البداية لأنه من النادر جدا بالنسبة لأى شخص أن يمضى فى الطريق الوعر حقا الذى لم يجربه أحد من قبل • وفى ميادين الجرأة الغاصة فى الوقت الراهن كثيرا ما يحصل « الأستاذ » على شهرته عن طريق سرقة أفكار لصوص الأفكار •

والأمر لا يحتاج الى كثير من الاقدام لكى نقول بأنه لم يحدث قط فى تاريخ الفن أن تمت ممارسة عملية السرقة هذه على هذا النحو من الاجماع والحماسة • فهنا

كل واحد متيقظ ومتحفز لما يفعله جاره خشية أن يجد نفسه فى مؤخرة الصفوف ، وتمضى الجرأة تخطو فى طريقها ، لكنها تمضى كنتيجة للانغاء الافتراضى للتقاليد •

ولقد أزدريت التقاليد الى الحد الذىصار معه الدنس امتيازا وجدارة، والافتقار الى الاصول الشهيرة شرفا ، وذلك راجع الى ما تجمع من هوس وجنون العانســات العذراوات الرقيقات اللائى يعملن بالتآمر مع الاكاديميين المتقاعدين • ان حاجتنا الى التذكير قد تبدو أمرا غير قابل للتصديق • لـكن التقاليد شىء لا غناء عنـه فى حالة الوضع الانسانى ، ليس فقط لأنه منها تأتينا مع اللغة تلك الذاكرة الجماعية التى تنطق من خلال الفن والعـلم والفلسفة والدين ، والتى بدونها ربمـا عدنا الى حالة الحيوان • ان هيئتنا التى تبدو فى انتصــاب قامة على قدمين اثنتين مسالة تقاليد • وحين نحاول الاقدام على ســخافة تجاهل التقــاليد التى تجعلنا نضرب بجذورنا فى الزمان ، فلا مفر من السقوط فى ذلك المستنقع الضحل الذى يمـكن أن نطلق عليه اسم التقاليد الأفقية ، التى تنتشر خفية، كما تنتشر نقطة من البترول على سطح ماء ، حتى تغطى أربعة أركان المعمورة •

فما هو هذا النوع الخاص الذى تتسم به الجرأة والذى يدفع المبدعين الشبان وغيرهم ممن ليسوا بشــباب ولا مبدعين الى ربط أنفسهم بهــذه السخافة فى أكثر بقــاع الأرض تنوعا ، من بلاد الشمس التى تطلع فى منتصف الليــل حتى المناطق الاستوائية •

هذا هو ما يجب حقا أن يخيفنا ، لأن المبرر الوحيد ـ ولو أنه كاف لأى جرأة مهما يكن الشىء الذى تكرس له ـ هو المبرر الذى يستجيب للاحتيــاجات العميقة لشخصيتنا ، والذى يفرض علينا مخاطرة الاقدام على لعبة مميتة • وان التغيرات التى تحدث ولو أنها خارج نطاق سيطرتنا ، ســواء فى ميدان الثقافة أو فى علم الحياة ، لا بد أن تحرك انسانا عقد العزم بالفعل على الجرأة لكى يواجه المجهول ، ويقول لنا تاريخ الفن فى أشد صفحاته ايلاما عن الثمن الذى يدفعه • وان ما يجرى الآن حين تحضر مزادا حقيقيا للمحرضات من كل لون ، وعلى الأخص ذلك النوع المالى منها ، لأن تطور عدم الانتماء الافتراضى الذى يستجيب الشباب فيه لما يصدر اليهم من أمر بالامتثال لهذا الطلب ، هو العكس تماما •

وفى مجال ما هو أخلاقى قد تؤدى الممارسة العــامة للجرأة الى نتيجة مباشرة هى العودة الى قانون الغاب الذى لسنا بمنأى عنه كما نأمل • وفى ميدان الجماليات قد تؤدى بنا هذه الممارسة الى فوضى الانسحاب المتبادل الى ذواتنا • لكن بالنظر الى الافتقار للصدق فى هذه الجرأة ، فان الفوضى التى غرقنا فيهــا تضيف الى أراضيها الخربة الأخرى خراب الرتابة •

ان التخلى المتزايد عن التقليد الزمنى قد تبعه ـ باجمــاع كورالى ـ اتفاق فى التنافر يظهره تقدير أكثر الاحتمالات تواضعا باعتبــاره النتيجة المحتملة لانســجام

وقبحي فى جماع المنازعات الخاطئة الشخصية وعلى الأخص اذا تذكرنا أن هذه الظاهرة قد كررت نفسها زمنا طويلا وبايقاع يمكن التنبؤ به لأعمال الجرأة كما يتنبأ به بالنسبة لطرز السيارات الجديدة ٠

انتا نقف بازاء جرأة منظمة بالغة الانتماء ، شديدة الاهتمام والكلمة بالاشارات السرية لحرفييها المتخصصين ، جرأة لا يجسر على مقاومتها تلميذ تحت التمرين ، عنده رغبة لتجربة حظه فى أقصر وقت مستطاع ٠

وبمعنى آخر فقد بلغنا المحطة التى نسأل فيها أنفسنا هل الاقدام على فعل ما لم يجسر أحد غيرنا على فعله يستحق أن يسمى جرأة واقداما ٠

لا بد أن أكون آسفا أشد الأسف اذا وجد أحد فى هذا السؤال الملح للغاية أقل اتسام بالمكر ٠ وعلى أساس الاجابة السليمة على هذا السؤال يتوقف مصير جيل الشباب من الذين قد يصبحون فنانين ٠

وعلى الفنان الحق ألا ينسى أن الاقدام له ما يبرره ، وبمعنى من معانيه فالفنان المقدام هنا مطلوب منه أن يحاول الظهور بأنه ليس كذلك ٠

الكاتب : ادواردوا جونزاليز لانوزا

مولود فى سانتاندر فى اسبانيا عام ١٩٠٠ ، واستقر فى بونس أيرس منذ ١٩١٩ ، وحصل على الجنسية الأرجنتينية ٠ أسس مع بورجس حركة « الترييستا » فى الارجنتين ، وتولى رياسة تحرير مجلتى « بريزما » و « بروا » ٠ وهو الآن عضو تحرير مجلة « سور » ، وله كثير من المؤلفات ٠

المترجم : الأستاذ فوزى سمعان

كبير المترجمين بوزارة الداخلية ٠ حائز على ليسانس فى الأدب الانجليزى من جامعة القاهرة ، ودبلوم فى الصحافة والترجمة ، وماجستير فى العلوم السياسية٠ له كثير من المقالات والدراسات ، والترجمات عن الانجليزية والفرنسية ، وله نشاط اذاعى كبير ٠



ثبت

مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو

مجلة رسالة اليونسكو

المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية

مجلة اليونسكو للمكتبات

مجلة (ديوچين)

فبراير ـ مايو ـ اغسطس ـ نوفمبر

العلم والمجتمع

مارس ـ يونية ـ سبتمبر ـ ديسمبر